لا تظالموا

(يا عبادي إني حرمت الظلم علي نفسي
وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا)

فضيلة الشيخ

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار الإيمان

للطبع والنشر والتوزيع

١٧ ش خليل الخياط - مصطفى كامل

إسكندرية ت:٥٤٥٧٧٦٩ـ٥٤٤٦٤٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم الإيداع ٩٧٩٤ / ١٩٩٠

الترقيم الدولى

977 - 5191 - 79 - 3

البريد الإلكترونى

E-Mail:DAR_ALEMAN@hotmail.com

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ ش خليل الخياط - مصطفى كامل
إسكندرية ت:٥٤٥٧٧٦٩ـ٥٤٤٦٤٩٦

عَنْ أَبِى ذَرّ الْغَفَّارِىّ رَضِىَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَالَ : « يَاعِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلَا تَظَالَموا ، يَاعِبَادِى كُلُّكُمْ ضَالٌ إِلاَّ مَن هَدَيْتُهِ فَاسْتَهْدُونِى أَهْدِكُمْ ، يَاعِبَادِى كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِى أُطْعِمْكُمْ ، يَاعِبَادِى كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِى أَكْسِكُمْ ، يَاعِبَادِى إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِى أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَاعِبَادِى إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّى فَتَضُرُّونِى وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِى فَتَنْفَعُونِى ، يَاعِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَازَادَ فِى مُلْكِى شَيْئاً ، يَاعِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئاً ، يَاعِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَته ما نقص ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِى إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ ، يَاعِبَادى إِنَّمَا هِىَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمِنْ وَجَدَ خيْراً فَلْيَحْمِدَ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » (رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــــــة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾(١) .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾(٢) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾(٣) .

أما بعـد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار . أوجب علينا ربنا جل وعلا طاعة نبيه ﷺ فقال : **﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾**(٤) وقال سبحانه : **﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر**

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٢

(٢) سورة النساء الآية ١

(٣) سورة الأحزاب الآية ٧٠ ، ٧١

(٤) سورة النساء الآية ٨٠ .

منكم فإن تنازعتم فى شىء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾[5] .

ورد الحكم لله هو رد لكتابه سبحانه والرد لرسول الله ﷺ هو رد الحكم لسنته الصحيحة الثابتة وقال تعالى :

﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ والآيات فى هذا المعنى كثيرة وقد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : **« كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى قالوا : يارسول الله ومن يأبى ؟ قال من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى »** .

وفى حديث العرباض بن سارية قال النبى ﷺ : **« أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشى وإنه من يعش منكم فسيرى إختلافاً كثيراً فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجز وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة »** .

قال الترمذى حسن صحيح وعن المقدام بن معدى كرب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه »** (رواه أبو داود والترمذى والحاكم) وصححه أحمد بسند صحيح .

ومعلوم أن السنة وحى من الله والنبى ﷺ **﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى إن هُوَ إلا وحىٌ يوحىٰ ﴾**[6] والتشريع مبنى على الكتاب والسنة والأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ منها ما هو نبوى ومنها ما هو قدسى وكل ذلك من الحكمة

---

(٥) سورة النساء الآيه ٥٩

(٦) سورة النجم الآية ٤

المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾[٧] وقوله : ﴿ هو الذى بَعَثَ فى الأُمِيين رَسُولاً منهم يتلُوا عَلَيهم ءَايَٰتِهِ ويُزكِيهم ويُعَلِّمُهُم الكِتَابَ والحكمة ﴾[٨] ﴿ واذكرن ما يُتلىٰ فى بيوتكُنَّ من ءَايَٰتِ اللهِ والحِكمةِ ﴾[٩] والكتاب هو القرآن والحكمة هى السنة باتفاق السلف والسنة لها شأن كبير مع القرآن فقد ترد مطابقة لما فى كتاب الله وأحيانا تخصص العام أو تفصل المجمل أو تفيد المطلق وقد تأتى بأحكام جديدة غير موجودة فى كتاب الله قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذِكرَ لتُبيِنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهم ﴾[١٠] والذكر هو السنة وهى تتولى بيان ما نزل للناس فى كتاب الله وقد ورد الأمر الشريف برواية الحديث وإسماعه فروى الإمام أحمد والبخارى والترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

كما حث السلف على طلب الحديث وحفظه فارتحل جابر بن عبد الله رضى الله عنهما شهراً كاملاً لسماع حديث من عبد الله بن أنيس رضى الله عنه وكان الأعمش يقول « عليكم بملازمة السنة وعلموها للأطفال فإنهم يحفظون على الناس دينهم إذا جاء وقتهم » .

وكان وكيع رحمه الله يقول « عليكم باتباع الأئمة المجتهدين والمحدثين فإنهم يكتبون ما لهم وما عليهم بخلاف أهل الأهواء والرأى فإنهم لا يكتبون قط ما عليهم » .

ولولا السنة ما فهم أحد منا القرآن كما قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله وكان يقول « إياكم والقول فى دين الله تعالى بالرأى وعليكم باتباع السنة فمن خرج عنها ضل » .

---

(٧) سورة النساء الآية ١١٣ .

(٨) سورة الجمعة الآية ٢ .

(٩) سورة الأحزاب الآية ٣٤ .

(١٠) سورة النحل الآية ٤٤ .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من رغب عن سنتي فليس مني** » (رواه مسلم) . وعن العرباض بن سارية رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك** » (رواه ابن أبى عاصم) فى كتاب السنة بإسناد حسن .

وقد ورد فى فضل المدافع عن الحديث والمحيى للسنة أحاديث منها ما قاله النبى ﷺ لبلال بن الحرث يوماً : « **اعلم يابلال : قال ما أعلم يارسول الله ؟ قال : إن من أحيى سنة من سنتي أميتت بعدى كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئاً** » (رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه) قال الحافظ المنذرى وللحديث شواهد .

وفى الحديث « **يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغاليين وانتحال المبطلين** » رواه الديلمى فى مسند الفردوس .

ومن علامات أهل البدع الوقيعة فى أهل السنة وأصحاب الحديث والأثر وتسميتهم بأسماء منفرة يقول إبن تيمية : « فإن السنة هى ما كان عليه رسول الله ﷺ اعتقاداً وإقتصاداً وقولاً وعملاً فكما كان المنحرفون عنه يسمونه بأسماء مذمومة مكذوبة وإن اعتقدوا صدقها بناء على عقيدتهم الفاسدة فكذلك التابعون له على بصيرة الذين هم أولى الناس بها فى المحيا والممات » أ . هـ .

وقد تولى رب العزة جل وعلا حفظ السنة كما حفظ القرآن فقال سبحانه : ﴿ **إنَّا نحنُ نزَّلنا الذكر وإنَّا له لحَافظون** ﴾ .

والسنة من الذكر ولذلك لما سئل إبن المبارك رحمه الله عن الأحاديث الموضوعة قال : « تعيش لها الجهابذة » ومعلوم مدى العناية التى حظيت بها السنة من علماء الأمة حفظا وتصحيحاً وتدوينا واشتهر منهم أئمة أفاضل كالإمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وأبى داود ... رحمهم الله جميعاً وجزاهم الله عنا خير الجزاء » .

والسنة حجة على جميع الأمة وليس عمل أحد حجة عليها كائنا من كان .

أحرج البيهقى عن الربيع قال : قال الشافعى فى أقاويل أصحاب رسول الله ﷺ : « إذا تفرقوا فيها نصير إلى ما وافق الكتاب والسنة والإجماع أو كان أصح فى القياس وإذا قال الواحد منهم القول لا يحفظ عن غيره منهم فيه له موافقة ولا خلاف صرت إلى إتباع قول واحدهم ، إذا لم أجد كتابا ولا سنة ولا إجماعاً ولا شيئاً فى معناه يحكم له بحكمه أو وجد معه قياس ولما كان للسنة هذه المزية ولأهلها هذا الفضل أردت أن أضرب لى معهم بسهم رجاء حيازة الثواب والأجر ولما كانت العلوم منح إلهية ومواهب حمدانية فغير مستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما لم يدخر لكثير من المتقدمين وإلا فمن ذا الذى يحول دون رحمة الله » .

وفى كتاب جامع بيان العلم وفضله للحافظ بن عبد البر : عن على رضى الله عنه أنه قال فى خطبة خطبها :

« واعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون وقدر كل إمرىء ما يحسن فتكلموا فى العلم تتبين أقداركم » .

قال ابن عبد البر : ويقال إن قول على بن أبى طالب قيمة كل إمرىء ما يحسن مالم يسبقه إليه أحد .

وقالوا : « ليس كلمة أضر بالعلم والعلماء والمتعلمين من قول القائل : ما ترك الأول للآخر شيئا » أ . هـ . نقلا عن قواعد التحدث وفيه أيضا وقد قالوا : « ينبغى أن لا يخلو تصنيف من أحد المعانى الثمانية التى تصنف لها العلماء وهى : إختراع معدوم أو جمع مفترق أو تكميل ناقص أو تفصيل مجمل أو تهذيب مطول أو ترتيب مخلط أو تعيين مبهم أو تبيين خطأ » كذا عدها ابن حبان .

لهذا قصدت لكتابة هذه الرسالة فإن أكن أصبت فمن الله وإن أكن أخطأت فمن نفسى ومن الشيطان والله منه برىء .

والله أسأل أن يثيبنا عنها خير الجزاء وأن يدخر لنا ثوابها عنده .

﴿ يَومَ لا ينفع مال ولا بنُونَ إلا من أتى الله بقلبٍ سَليم ﴾[١٠] .

(١٠) سورة الشعراء الآية ٨٨ ــ ٨٩ .

روايـــات الحـــديث

عن أبى إدريس الخولانى :

عن أبى ذر ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

« يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى ، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وَأنا أغفر الذنوب جميعاً فإستغفرونى أغفر لكم .

يا عبادى إنكم لم تبلغوا ضرى فتضرونى ولم تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه باب « تحريم الظلم » .

وفى رواية أخـرى :

« إنى حرمت على نفسى الظلم وعلى عبادى فلا تظالموا » وأخرجه الترمذى عن أبى ذر بألفاظ مغايرة لما ذكره مسلم وفيه يقول الله تعالى :

« يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فسلونى الهدى أهدكم وكلكم فقير إلا من أغنيته فسلونى أرزقكم وكلكم مذنب إلا من عافيته فمن علم منكم أنى ذو قدرة على المغفرة فاستغفرنى غفرت له ولا أبالى ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم إجتمعوا على أتقى قلب رجل من عبادى ما زاد ذلك فى ملكى جناح بعوضة ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أشقى قلب عبد من عبادى ما نقص ذلك من ملكى جناح بعوضة ولو أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم إجتمعوا فى صعيد واحد فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته فأعطيت كل سائل منكم ما سأل ما نقص ذلك من ملكى إلا كما لو أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه ذلك بأنى جواد ماجد أفعل ما أريد عطائى كلام وعذابى كلام إنما أمرى إذا أردته أن أقول له كن فيكون » .

قال الترمذى : حديث حسن .

وأخرجه ابن ماجه فى سننه عن أبى ذر أيضا بألفاظ قريبة من ألفاظ الترمذى وفيه تقديم وتأخير ولم يذكر فيه قوله : ﴿ **ولو أن حيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم إجتمعوا على أتقى قلب واحد** ﴾ — ولم يذكر فيه أيضاً قوله : ﴿ **وعذابى كلام** ﴾ وبقيته مثل لفظ الترمذى وخرجه الطبرانى بمعناه من حديث أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ إلا أن إسناده ضعيف وهذا الحديث مسلسل بالدمشقيين وهو أشرف حديث لأهل الشام كما قال الإمام أحمد رحمه الله وكان أبو إدريس الخولانى إذا حدث به جثا على ركبتيه .

هل فى الأحاديث فاضل ومفضول

ونجيب على ذلك ونقول نعم فلم يخطىء الإمام أحمد (إمام أهل السنة) فى قوله هذا الحديث هو أشرف حديث لأهل الشام وإن كانت الأحاديث الثابتة كلها شريفة إذ أنها وحى من الله تعالى والتفضيل إنما هو بالمعانى العجيبة وكثرتها لا من حيث الصفة وأنت إذا تأملت وتدبرت هذا الحديث وجدت فيه من المعانى ما يستحق به أن يوصف بمثل هذا الوصف وقد اختلف العلماء فى تفضيل بعض السور على بعض وتفضيل بعض أسماء الله الحسنى على بعض :

فقال فريق من العلماء : إن الأفضل يشعر بنقص المفضول والتفضيل إنما هو فى الأجر والثواب لأن بعض القرآن أفضل من بعض .

وقال قوم آخرون : بالتفضيل وأن ما تضمنه قوله تعالى :

﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ .

وآية الكرسى وآخر سورة الحشر وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيته سبحانه وصفاته ليس موجوداً مثلاً فى **﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾** وما كان مثلها .

وفى الحديث عن أبى ابن كعب رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« ياأبى : أى آية معك فى كتاب الله أعظم قال : فقلت : الله لا إله إلا هو الحىُّ القيوم . قال فضرب فى صدرى وقال : ليهنك العلم ياأبا المنذر »** أخرجه البخارى ومسلم .

وفى القرطبى قال إبن الحصار : « عجبى ممن يذكر الخلاف مع هذه النصوص » وقال ابن العزبى قوله : « ما أنزل الله فى التوارة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها » . وسكت عن سائر الكتب كالصحف المنزلة والزبور وغيرها لأن هذه المذكورة أفضلها وإذا كان الشيء أفضل الأفضل صار أفضل الكل كقولك زيد أفضل العلماء فهو أفضل الناس .

وفى الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها حتى قيل : إن جميع القرآن فيها وهى خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده ولا تصح القربة إلا بها ولا يلحق عمل بثوابها وبهذا المعنى صارت أم القرآن العظيم كما صارت ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن إذ القرآن توحيد وأحكام ووعظ .

﴿ قل هو الله أحد ﴾ . فيها التوحيد كله وبهذا المعنى وقع البيان فى قوله عليه السلام لأبى : « أى آية فى القرآن أعظم قال ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ » وإنما كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها كما صار قوله « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » » أفضل الذكر لأنها كلمات حوت جميع العلوم فى التوحيد والفاتحة تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير ولا يستبعد ذلك فى قدرة الله تعالى .

ثم نقل ما رواه على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « فاتحة الكتاب وآية الكرسى و شهد الله أنه لا إله إلا هو وقل اللهم مالك الملك ، هذه الآيات معلقات بالعرش ليس بينهن وبين الله حجاب » أسنده أبو عمرو والدانى فى كتاب « البيان » له .

الخشوع والتأدب عند سماع الحديث

فقد كان أبو إدريس الخولانى رحمه الله إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه وقد يقول قائل : فعل أبو إدريس الخولانى ذلك لما إنطوى عليه الحديث من معانٍ عظيمة . ونقول : نعم ولكن الأمر لا يقتصر على ذلك فهذا الخشوع وهذا التأدب واجب مع سائر الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ وهذا دأب العلماء والصالحين .

فعن إبن أبى أويس قال : « كان مالك إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن فى الجلوس بوقار وهيبة ثم حدث فقيل له فى ذلك فقال : أحب أن أعظم حديث النبى ﷺ ولا أحدث به إلا على طهارة متمكناً » وكان يكره أن يحدثُ فى الطريق وهو قائم أو مستعجل فقال : « أحب أن يُفهَم ما أحدثُ به عن رسول الله ﷺ . والأدب واجب على العباد فى حياة النبى ﷺ وبعد مماته » .

وقد نُزّلت سُورة الحجرات بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب وفيها يقول ربنا جل وعلى : ﴿ يَٰأَيُّهَا الذين ءَامنوا لا تُقدِّموا بين يَدَيِ الله ورَسُولِهِ واتقُوا الله ﴾[1] وهى أصل فى ترك التعرض لأقوال النبى ﷺ .

وإيجاب إتباعه والإقتداء به ثم يقول سبحانه : ﴿ يَٰأَيُّها الذينَ ءَامنوا لا ترفعوا أصوٰاتكُم فوق صوت النَّبي ولا تَجهروا له بالقَول كجَهرِ بعضكُم لبعضٍ أن تَحبطَ أعمٰلُكم وأنتمُ لا تشعُرُونَ ﴾[2] .

روى البخارى عن ابن أبى مليكة قال : « كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رفعا أصواتها عند النبى ﷺ حين قدم عليه ركب بن تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخى بن مجاشع وأشار الآخر برجل آخر فقال نافع : لا أحفظ اسمه

---

(١) سورة الحجرات الآية ١

(٢) سورة الحجرات الآية ٢ .

فقال ابو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافى . فقال : ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما فى ذلك » فأنزل الله عز وجل : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ﴾ .

فقال إبن الزبير : فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه ولم يذكر ذلك عن أبيه (يريد جده لأمه أسماء) يعنى أبا بكر الصديق وفى الصحيحين عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ .

إفتقد ثابت بن قيس فقال رجل :« يا رسول الله أنا أعلم لك علمه فأتاه فوجده جالسا فى بيته منكساً رأسه فقال له ما شأنك ؟ فقال : شر كان يرفع صوته فوق صوت النبى ﷺ فقد حبط عمله وهو من أهل النار فأتى الرجل النبى ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا . فقال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال : اذهب إليه فقل له إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة » لفظ البخارى .

وكان ثابت بن قيس خطيباً بليغاً معروفاً بذلك كان يقال له خطيب رسول الله ﷺ كما يقال لحسان شاعر رسول الله ﷺ ولما قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ وطلبوا المفاخرة قام خطيبهم فافتخر ثم قام ثابت بن قيس فخطب خطبة بليغة جذلة فغلبهم وقام شاعرهم وهو الأقرع بن حابس فأنشد فرد عليه حسان بن ثابت فقالوا : خطيبهم أخطب من خطيبنا وشاعرهم أشعر من شاعرنا فارتفعت أصواتهم فأنزل الله تعالى : ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول ﴾ .

وقد نهاهم ربنا جل وعلا أن يخاطبوه : يا محمد ويا أحمد ولكن يانبى الله ويا رسول الله توقيراً له فلابد من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها وإنحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها .

قال ابن العربى : « حرمة النبى ﷺ ميتاً كحرمته حياً وكلامه المأثور بعد موته فى الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه فإذا قرىء كلامه وجب على كل

حضر ألا يرفع صوته عليه ولا يعرض عنه كما كان يلزمه ذلك فى مجلسه عند تلفظه به وقد نبه الله سبحانه على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى : ﴿ **وإذا قُرِىءَ القرءآن فإستمعُوا لَهُ وأنصِتُوا** ﴾[٣] . وكلامه ﷺ من الوحى وله من الحكمة مثل ما للقرآن إلا معانى مستثناه بيانها فى كتب الفقه » أ . هـ .

فإذا كان المقصد من رفع الصوت والجهر والاستخفاف والإستهانة فذلك كفر بالله جل وعلا ثم تتوالى الآيات التى تحض على التأدب مع رسول الله ﷺ ومع حديثه ، فيقول سبحانه : ﴿ **إن الذين يَغُضونَ أصوَاتهم عند رسُولِ الله أولٰئِك الَّذينَ امتَحَنَ الله قُلُوبَهُم للتَقوىٰ لَهُم مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ** ﴾[٤].

قال أبو هريرة : لما نزلت ﴿ **لا ترفعوا أصواتكم** ﴾ قال أبو بكر رضى الله عنه : « والله لا أرفع صوتى إلا كأخر السراد (أى كصاحب السراد) أو كمثل المسايرة لخفض صوته » . وقال عبد الله بن الزبير : لما نزلت ﴿ **لا ترفعوا أصواتكم** ﴾ ما حدث عمر عند النبى ﷺ بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض منزلتى ﴿ **إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله** ﴾ .

وعن مالك قال : « مجالس العلم تحتضر بالخشوع والسكينة والوقار ويكره أن يقوم لأحد » فقد قال إذا قام القارىء لحديث رسول الله ﷺ لأحد فإنه يكتب عليه خطيئته فإن رفع أحد صوته فى المجلس زجره فقد كان مالك يفعل ذلك أيضاً ويقول : قال الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى** ﴾ فمن رفع صوته عند حديثه فكأنما رفع صوته فوق صوته .

وعن ابن المسيب أنه سئل عن حديث وهو مضطجع فى مرضه فجلس وحدث به فقيل له : وددت أنك لم تتعنَّ فقال كرهت أن أحدث عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع وعن بشر بن الحارث أن إبن المبارك سئل عن حديث وهو يمشى فقال : « ليس هذا من توقير العلم » .

---

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠٤ .

(٤) سورة الحجرات الآية ٤ .

فعلى المحدث أن يلزم التواضع ويكون معظماً لما يحدث به مما ينتفع المسلمون به من فرائضهم وسننهم وآدابهم وقد ورد الترهيب من عدم توقير الحديث وهجر من يعرض عنه والغضب لله فى ذلك فروى مسلم عن سالم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « **إذا استأذنت أحدكم أمرأته إلى المسجد فلا يمنعها قال فلان بن عبد الله إذن والله أمنعها ؟ فأقبل عليه ابن عمر فشتمه شتمة لم أره شتمها أحد قبله ثم قال : أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول إذن والله أمنعها ؟** » ورواه الإمام أحمد وزاد : « فما كلمه عبد الله حتى مات » .

قال الطيبى : « عجبت مما يتسمى بالسنى إذا سمع من سنة رسول الله ﷺ وله رأى رجح رأيه عليها وأى فرق بينه وبين المبتدع ؟ أما سمع : « **لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به** » وها هو ابن عمرو وهو من أكابر الصحابة وفقهائها كيف غضب لله ورسوله وهجر فلذة كبده لتلك الهنة عبرةً لأولى الألباب » أ . هـ . والحديث إذا استدل به الطيبى مختلف فى تصحيحه إلا أن معناه صحيح أيضاً .

روى مسلم عن عبد الله ابن بريده قال : « رأى عبد الله بن مغفل رجلاً من أصحابه يختذف فقال : لا تخذف فإن رسول الله ﷺ كان ينهى عن الخذف وكان يكرهه وإنه لا ينكأ به عدو ولا يصاد به صيد ولكنه قد يفقأ العين ويكسر السن ثم رآه بعد ذلك يخذف فقال له : ألم أخبرك أن رسول الله ﷺ كان ينهى عنه ثم أراك والله لا أكلمك أبداً » . قال النووى : « فيه جواز هجر أهل البدع والفسوق وأنه يجوز هجرانهم دائماً فالنهى عنه فوق ثلاثة أيام إنما هى فى هجر لحظ نفسه ومعايش الدنيا وأما هجر أهل البدع فيجوز على الدوام كما يدل هذا مع نظائر له كحديث كعب بن مالك » .

وينبغى أن يعلم أن الهجر شرع كعلاج لجلب مصلحة ولدفع مضرة ومفسدة فلا تزيد فى الكيفية أو فى الكمية فتهلك صاحبك فهو لم يشرع لبتر ولا للإهلاك وكان من مذهب عمر وأبى الدرداء وإبراهيم النخعى أنك لا تهجر أخاك عند المعصية فإن الأخ يَعوجُ مرة ويستقيم أخرى ويتأكد هذا وخصوصاً فى أوقات الغربة هذه .

فوائـــد حديثيـــة

الأولـــى : تتعلق بالحديث القدسى (أو الإلهى أو الربانى) . قال القاسمى فى كتاب قواعد التحديث ، قال العلامة الشهاب ابن حجر الهيثمى فى شرح الأربعين النووية فى شرح الحديث الرابع والعشرين المسلسل بالدمشقيين وهو حديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « **يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ... الحديث** » ما نصه : (فائدة) يعم نفعها ويعظم وقعها فى الفرق بين الوحى المتلو وهو القرآن والوحى المروى عنه ﷺ .. عن ربه عز وجل . وهو ما ورد من الأحاديث الإلهية وتسمى القدسية وهى أكثر من مائة وقد جمعها بعضهم فى جزء كبير وحديث أبى ذر هذا من أجلها اعلم أن الكلام المضاف إليه تعالى أقسام ثلاثة :

أولهـا : وهو أشرفها : القرآن لتميزه عن البقية بإعجازه من أوجه كثيرة وكونه معجزة باقية على مر الدهور محفوظة من التغيير والتبديل وبحرمة مسه للمحدث وتلاوته لنحو الجنب وروايته بالمعنى وتبعيته فى الصلاة وبتسميته قرآناً وبأن كل حرف منه بعشر حسنات وبإمتناع بيعه فى رواية عند أحمد وكراهته عندنا وبتسميته الجملة منه آية وسورة ــ وغيره من بقية الكتب والأحاديث القدسية لا يثبت لها شيء من ذلك فيجوز مسه وتلاوته لمن ذكر وروايته بالمعنى ولا يجزىء فى الصلاة بل يبطلها ولا يسمى قرآنا ولا يعطى قارئه بكل حرف عشراً ولا يمنع بيعه ولا يكره إتفاقا ولا يسمى بعضه آية ولا سورة إتفاقاً أيضاً .

ثانيهـا : كتب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل تغييرها وتبديلها .

ثالثهـا : بقية الأحاديث القدسية وهى ما نقل إلينا آحاداً عنه ﷺ . مع إسناده لها عن ربه فهى من كلامه تعالى فتضاف إليه وهو الأغلب ونسبتها إليه حينئذ نسبة إنشاء لأنه المتكلم بها أولاً وقد تضاف إلى النبى ﷺ لأنه المخبر بها عن الله تعالى

بخلاف القرآن فإنه لا يضاف إلا إليه تعالى فيقال فيه : قال الله تعالى وفيها قال رسول الله ﷺ — فيما روى عن ربه تعالى .

واختلف فى بقية السنة هل هو كله بوحى أو لا ؟ . وآية ﴿ **وما ينطق عن الهوى** ﴾ تؤيد الأول ومن ثم قال ﷺ : « **ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه** » .

ولا تنحصر تلك الأحاديث القدسية فى كيفية من كيفيات الوحى بل يجوز أن تنزل بأى كيفية من كيفياته كرؤيا النوم والإلقاء فى الروع وعلى لسان الملك ولراويها صيغتان :

إحداهما : أن يقول : قال رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه وهى عبارة السلف ومن ثم أثرها النووى . رحمه الله تعالى .

ثانيتهما : أن يقول : قال الله تعالى فيما رواه عنه رسول الله ﷺ والمعنى واحد أ . هـ .

١ — تعريف الحديث القدسى :

هو الحديث الذى يسنده النبى ﷺ إلى الله عز وجل فيرويه النبى ﷺ على أنه من كلام الله تعالى . والقدس نسبة إلى التنزيه والتطهير .

٢ — الحديث القدسى :

منه الصحيح والحسن والضعيف ، فوصف الحديث بالقدسى لا يعنى أبداً وصفه بالصحة إذ أن الصحة والضعف يعتمد فيهما على السند بينما هذا الوصف يتعلق بنسبة الكلام إلى الله تبارك وتعالى .

٣ — الحديث القدسى :

كلام الله بالمعنى واللفظ من الرسول ﷺ وهذا سائغ وكثير فى اللغة العربية

ويكون المقصود من عبارة (يقول الله تعالى كذا أو فيما يرويه عن الله تعالى كذا) فيه مضمون الحديث إلى الله لا نسبة ألفاظه وقد حكى الله عن موسى وعيسى وغيرهم فى القرآن مضمون كلامهم بالعربية أى بالمعنى لأنهم لم يكونوا يتكلمون باللغة العربية مثل ﴿ **قال رَبُّنَا الَّذِىٓ أعطَىٰ كُلَّ شىءٍ خلقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴾[1] . وكما لو نثر الإنسان بيتا من الشعر ثم يقول عن شرح القصيدة يقول الشاعر : كذا وكذا ويقصد بذلك المضمون لا اللفظ .

٤ ــ الفرق بين الحديث القدسى والقرآن :

أورد ابن حجر الهيثمى كثيراً من الفروق بين الحديث القدسى والقرآن **ومن أهم هذه الفروق : ــ**

ــ أن القرآن منقول بالتواتر حفظته السطور والصدور أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى . والتحدى فى القرآن بلفظه ومعناه أما الحديث القدسى فقد نقل معظمه عن طريق الآحاد ولذلك فإن فيه الضعيف والحسن والموضوع ولم يرد تحدى الإنس والجن به . هذا بالإضافة إلى أن القرآن كلام الله عز وجل بلفظه ومعناه والحديث القدسى كلام الله تعالى بالمعنى فقط واللفظ للرسول ﷺ .

٥ ــ الفرق بين الحديث القدسى والحديث النبوى :

وجه الإشتباه أن كلاهما وحى من الله واللفظ فيهما لرسول الله ﷺ ولكن الحديث النبوى لا تتواجد فيه هذه الصيغة الشرعية . قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى كذا أو (قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه كذا) .

هذا بالإضافة إلى أن النبى ﷺ كان يجتهد فى المسائل التى تتنزل به فإن أخطأ خطأً جزئياً راجعه الوحى وبين له الحق فى ذلك كما حدث فى أسرى بدر وفى قصة

---

(١) سورة طــه الآيه ٥٠ .

الأعمى وفى صلاته على المنافقين وهذا الجزء من السنة النبوية يطلق عليه البعض إسم « **قسم توفيقى** » والقسم الثانى هو « **التوفيقى** » وهو الذى تلقى النبى ﷺ مضمونه من الوحى فبينه بلفظه وهذا وإن كان مضمونه من الله إلا أنه أجدر بالنسبة إلى رسول الله ﷺ لأنه هو قائله وبالتالى فالقسمين مَردهما للوحى الصادق .

ويصدق على الحديث النبوى قول الله تعالى :

﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾ .

ولو استطعنا التفريق بين القسمين لسمينا الثانى قدسيا ولكن نتيجة العجز عن ذلك سمينا القسمين بإسم ينطبق عليهما وهو الحديث النبوى والواجب على المسلم الإمتثال والإنقياد لكل ما يصدر منه ﷺ .

الثـانى : الإهتمام بتجويد الحديث : لا يخفى أن التجويد من مُقتضيات اللغة العربية لأن العرب لم تنطق بكلمها إلا مجودة فمن نطق بها غير مجودة فكأنه لم ينطق بها بل سيقع فى اللحن الجلىُ حتماً فمن تكلم بحديثه ﷺ فعليه بمراعاة ما نطق به ﷺ فهو أفصِح من نطق بالضاد .

الثـالث : لابد من إخلاص النية فى طلب الحديث ومتابعة العلم بالعمل .

فعن ابن مسعود رضى الله عنه « ليس العلم عن كثرة الحديث وإنما العلم خشية الله » .

وعن معمر أنه قال : « كان يقال : من طلب العلم لغير الله يأبى عليه العلم حتى يصيره إلى الله » .

وعن الثورى قال : « كنا نطلب العلم للدنيا فجرَّنا إلى الآخرة » ، وقال أيضاً : « كنت أغبط الرجل يجتمع حوله ويكتب عنه فلما إبتليت به وددت أنى نجوت منه كفافاً لا علىَّ ولا لى » ، وقال : « العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا إرتحل » ، ومن أقواله : « الذى يفوق الناس فى العلم جدير أن يفوقهم فى

العمل » .

« العلماء إذا علموا عملوا فإذا عملوا شغلوا فإذا شغلوا فقدوا فإذا فقدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا » . العالم الذى وافق علمه عمله ومن خالف علمه عمله فذلك راوية حديث سمع شيئاً فقاله .

وعن أبى الدرداء : « لا تكون تقياً حتى تكون عالماً ولا تكون بالعلم جميلاً حتى تكون به عاملاً » .

وعن إبن مسعود « كونوا للعلم دعاة ولا تكونوا له رواة فإنه قد يوعى ولا يروى وقد يروى ولا يوعى » ، وعن على : « يا حملة العلم اعملوا به فإن العالم من علم ووافق علمه عمله وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم تخالف سريرتهم علانيتهم ويخالف علمهم عملهم يقعدون حلقا ربما هى بعضهم بعضا حتى أن الرجل ليغضب على جليسة أن يجلس إلى غيره ويدعه أولئك لا تصعد أعمالهم تلك إلى الله عز وجل » .

بدعة الأقتصار على الصحيحين

الحق أبلج وعليه نور والباطل أبلج وكله ظلمه وهو لا يقف بأهله عند حد فقد خرج فريق من الناس ينكر حجية السنة جملة ويزعم الإكتفاء بالقرآن وهذه الطائفة هى طائفة القرآنيين المارقة وهذه الطائفة لم تؤمن فى الحقيقة بكتاب الله وإلا فما معنى قوله تعالى :

﴿ ومآءاتكم الرسول فخذوه وما نهكم عنه فانتهوا ﴾[1] .

قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضللاً مبيناً ﴾[2] .

حكى الشافعى إجماع الصحابة فمن بعدهم على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ ليس له أن يدعها لقول أحد من الناس كائناً من كان . وقال سبحانه :

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾[3] .

قال الإمام ابن حزم فى الإحكام : « ولو أن امرأ قال لا نأخذ إلا ما وجدنا فى القرآن لكان كافراً بإجماع الأمة ولكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل وأخرى عند الفجر لأن ذلك هو أقل ما يقع عليه إسم الصلاة ولا حد للأكثر فى ذلك وقائل هذا كافر مشرك حلال الدم والمال » أ . هـ .

وأخرج أبو داود والترمذى عن المقدام بن معدى كرب عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **يوشك أحدكم أن يقول : هذا كتاب الله ما كان فيه من حلال أحللناه وما كان فيه من حرام حرمناه إلا من بلغه عنى حديث فكذب به فقد كذب الله**

---

(١) سورة الحشر الآية ٧ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٦ .

(٣) سورة النساء الآية ٦٥ .

ورسوله والذى حدثه » وفى الحديث : « ألا إن من حرم رسول الله مثل ما حرم الله » .

بل قال العلماء والسنة تقضى على الكتاب ولها شأن كبير معه . وقال الإمام أحمد : « من رد حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكه » ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « إياكم وأصحاب الرأى فإنهم أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا لا نعلم فعارضوا السنن برأيهم فإياكم وإياهم » وقال أيضاً : « سيأتى قوم يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالحديث فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله » ، وقال أيوب السختيانى : « إذا حدثت الرجل بسنة فقال : دعنا من هذا وأجبنا من القرآن فأعلم أنه ضال » .

وعن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قال : « سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ به تصديق لكتاب الله تعالى وإستكمال لطاعته وقوة على دين الله تعالى ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر فيما خالفها من إهتدى بها هدى ومن إستنصر بها نصر ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً » .

ورغم هذا الوضوح وهذا البيان إلا أنه وجد من يقول أنا سأقتصر على البخارى مع كتاب الله بإعتباره أصح كتاب بعد القرآن ، ومنهم من يقول سأقتصر على صحيحين (البخارى ومسلم) مع القرآن باعتبارهما أصح الكتب بعد كتاب الله وكلاهما يحد حداً من عنده ويبتدع فى دين الله ما ليس منه ويفوت ويضيع على الأمة خيراً كثيراً ولو اقتصرت همته هو على حفظ الأحاديث الواردة فى البخارى ومسلم أو كان التقديم والتأخير فى الحفظ من باب ما لا يدرك كله أو تقديم الأهم على المهم لقلنا لا بأس بذلك ولكنهم اقتصروا على الصحيحين أو على البخارى فقط فى مقام إستنباط الأحكام الفقهية .

وهذا خطأ لوجوه منها أن البخارى ومسلم لم يستوعب كل الصحيح

بشهادتيهما وما تركا من الصحيح أكثر لملال الطول ومنها أن الله تعبدنا بالصحيح وهو رواية العدل الضبط عن مثله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة فالواجب علينا أن نعمل بكل ما صح وثبت وجد ذلك عند البخارى ومسلم أو عند غيرهما كالترمذى وأحمد وأبى داود والنسائى والحاكم وابن ماجة والدارمى وإبن خزيمة وإن كان شرط البخارى ومسلم هو أعلى شروط الصحة ومنها أن استنباط الأحكام كما يحتاج إلى نظرة شاملة واسعة فى كل ما صح فى الباب الواحد فقد نخصص العام أو نقيد المطلق أو نفصل المجمل أو قد نصير إلى النسخ وفق الضوابط الشرعية .

ومنها أن الحديث الحسن على مداره معظم الأحكام كما قال العلماء . ومنها أن هناك أحاديث صحت على شرطهما ولم يخرجاها فى الصحيح . ومنها ما صح على شرط البخارى أو مسلم بل وجمهور العلماء يعملون بالحديث الضعيف فى فضائل الأعمال بشروط أوردوها فى كتبهم فهل يصح بعد ذلك القول بالإقتصار على الصحيحين . .

سبحانك هذا بهتان عظيم وإضاعة لدين الله بل وفيه منع لوصول كثير من الثواب لرسول الله ﷺ عندما نوقف العمل بهذه الأحكام التى بلغها لأمته ولا يشفع لهذا الفريق المبتدع ورود بعض الروايات الضعيفة أو حتى الموضوعة عند الحاكم والترمذى وأبى داود والواجب علينا أن نقتصر فى الإحتجاج على ما صح وثبت ونترك العمل بالضعيف والموضوع وقد قام علماء الأمة جزاهم الله خير الجزاء ببيان الصحيح من الضعيف وصدق شيخ الإسلام ابن تيمية حيث يقول : « أنا التزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفى ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله » .

والحديث الصحيح الذى لم يبلغ درجة التواتر والذى يطلق عليه خبر الآحاد يفيد العلم والعمل وتثبت به العقيدة كما تثبت به الأحكام والأدلة على ذلك كثيرة ذكرها غير واحد من العلماء ومنهم الشيخ الألبانى حفظه الله فى رسالته وجوب الأخذ بحديث الآحاد فى العقيدة وقد ذكر عشرين وجهاً فى ذلك ومن الأدلة التى يستدل بها أن النبى ﷺ كان يبعث أفراداً من الصحابة إلى مختلف البلاد ليعلموا

الناس دينهم كما أرسل علياً ومعاذاً وأبا موسى إلى اليمن فى نوبات مختلفة ونعلم يقيناً أن أهم شيء فى الدين إنما هو العقيدة فهى أول شيء كان أولئك الرسل يدعون الناس إليه كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ : « **إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل فإذا عرفوا الله فأخبرهم إن الله فرض عليهم خمس صلوات ....** » الحديث متفق عليه .

ترابط وتناسب أجزاء الحديث

لقد أوتى رسول الله ﷺ جوامع الكلم وفواتحه وخواتمه وكما ذكرنا فقد ورد التحدى بكتاب الله ولم يرد مثل هذا التحدى بسنة رسول الله ﷺ وإن كان هذا المعنى لا يمنع وجود الإعجاز العلمى أو الحكمى التشريعى في حديث النبى ﷺ والتى هي بمثابة دلائل من دلائل نبوة رسول الله ﷺ ونحن إذا نظرنا إلى هذا الحديث القدسى وجدنا ترابطاً وتناسباً بين بدايته ونهايته وبين اجزائه فى تسلسلها الأمر الذى تقطع معه بأنه آية فى حد ذاته ففي بداية الحديث يبين رب العزة جل وعلى ما اتصف به من صفات الكمال ونعوت الجلال وأنه حرم الظلم على نفسه فالعدل أساس الملك وبه قامت السموات والأرض ويختم ربنا جل وعلا الحديث بقوله : « **ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها** » . فلا ظلم بين العباد لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وإنما هم يتقلبون بين فضل وعدل فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه .

فانظر إلى هذا الترابط الواضح الوثيق بين المقدمة والخاتمة وقد ترابطت وتناسبت أيضا أجزاء الحديث فى بدايتها وكلها تبدأ بقوله سبحانه : ﴿ **ياعبادى** ﴾ فالخلق خلقه والعبد عبده والأمر أمره والحلال ما أحل والحرام ما حرم والدين ما شرع والكل يجب عليه أن يعيش حياة العبودية وهو سبحانه لم يخلق خلقه لكى يعذبهم ﴿ **ما يفعَلُ الله بعَذَابكُم إن شَكَرتُم وءامنتُم** ﴾ .

ثم أنظر كيف ذكر رب العزة جل وعلا أمر الهداية فى معرض الإمتنان على عباده وقدمها على الطعام والشراب والكسوة وهذا تناسب بديع محكم وذلك لأن المخلوق أحوج للهداية منه إلى الماء والهواء بل لا حياة حقيقية بدونها .

ثم تتوالى فقرات الحديث لتبين أنه رغم هذه النعم العديدة التى تستوجب الشكر إلا أن العباد يخطئون بالليل والنهار وهو سبحانه أحق أن يطاع فلا يعصى

---

(١) سورة النساء الآية ١٤٧ .

وأن يشكر فلا يكفر وأن يذكر فلا ينسى ثم يفتح سبحانه أبواب الرجاء لعباده على ما بهم من خطايا وذنوب وحتى لا ييأسوا من رحمته ﴿ **ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم** ﴾ .

ثم بين سبحانه أنه لم يفعل ذلك لعباده لإستحقاقهم له فلم يوجب أحد على ربه شيئاً فهو الغنى وهم الفقراء إليه لا ينالون ما عنده إلا بطاعته ﴿ **ياعبادى إنكم لم تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى** ﴾ . فسعادة الدارين منوطة بالاستقامة وعلى العباد أن يرغبوا فيما عند ربهم فعطاؤه واسع سبحانه ﴿ **وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ولن يهلك مع الدعاء أحد ولذلك فاستهدونى أهدكم .. فاستطعمونى أطعمكم .. فاستكسونى أكسكم .. فاستغفرونى أغفر لكم** ﴾ .

فهو سبحانه الذى ينيل الطلبات ويكشف الكربات ويقبل العثرات ولا يفعل ذلك أحد سواه أحب من عباده أن يسألوه وأعلمهم ذلك بقوله : ﴿ **ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر** ﴾ .

والعلم والعمل بما جاء فى الروايات لا يمنع من التدبر والتأمل والتماس هذه المناسبات وتوضيحها متى وجدت ودون تكلف . وإعراض الكثيرين عن ذكر هذه المناسبات لا يمنع من وجودها ليس فقط فى كتاب الله وإنما أيضاً فى سنة رسول الله ﷺ يقول ابن العربى : « إرتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعانى منتظمة المبانى علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل سورة البقرة ثم فتح الله لنا فيه فلما لم نجد له حمله ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه فإذا كان هذا هو الحال مع القرآن فكيف يكون الشأن مع الحديث !! » .

وقد نبه العلماء قديماً على إهمال علم المناسبة ولفتوا الأنظار إلى أنه يحتوى على لطائف القرآن بل أن الفخد الدازى قال : « من تأمل فى لطائف نظم السور

وبديع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجزة بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته ولعل الذين قالوا : أنه معجزة بسبب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أنى رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار » .

والفهم فى الكتاب والسنة فضل يؤتيه الله من يشاء من عباده ومن ذلك ما ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال : لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من حيث علمتم فدعاه ذات يوم فأدخله معهم فما رئيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم قال : ما تقولون فى قوله تعالى : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ ، فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم فلم يقل شيئا فقال لى : أكذلك تقول ياابن عباس فقلت : لا . قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له . قال : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ وذلك علامة أجلك ﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾ فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول » أخرجه البخارى .

قال ابن القيم : « وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول تفسير على اللفظ وهو الذى ينجو إليه المتأخرون وتفسير على المعنى وهو الذى يذكره السلف وتفسير على الإشارة وهو الذى ينجو إليه كثير من الصوفية وغيرهم وهذا لا بأس به بأربعة شروط :

١ ــ ألا يناقض معنى الآية .

٢ ــ وأن يكون معنى صحيحاً فى نفسه .

٣ ــ وأن يكون فى اللفظ إشعار به .

٤ ــ وأن يكون بينه وبين معنى الآية إرتباط وتلازم فإذا إجتمعت هذه الأمور الأربعة كان إستنباطاً حسنا . أ . هـ .

الرفــق بالعبــاد وأدب الخطـــاب

ابتدأ رب العزة جل وعلا الحديث بقوله ﴿ **ياعبادى** ﴾ وتكررت هذه اللفظة عشر مرات ، ففى بداية كل جزء من أجزاء الحديث كان الخطاب ﴿ **ياعبادى** ﴾ وهذا اللفظ يشعر بعظيم رحمته جل وعلا بعباده ورفقه بهم فالخلق خلقه والعبد عبده وهو سبحانه البر الرحيم والخطاب على هذا النحو فيه إعانه للعباد على طاعة الله وحثهم على ذلك بل وتذكيرهم بالغاية التى من أجلها خلقوا ﴿ **وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبُدون ما أُرِيدُ منهُم من رزقٍ وما أُريدُ أن يُطعمُون * إنَّ الله هُوَ الرزاقُ ذُو القُوة المتين** ﴾[1] .

وأن الواجب عليهم أن يعيشوا وفق مقتضى العبودية والإسترقاق وإلا فالكل معبد ومذلل يجرى عليه قضاء الله وقدره من مرض وموت ونحوه وقد رأينا كيف امتدح ربنا جل وعلا نبيه ، ثنى عليه ووصفه فى أشرف مقاماته بوصف العبودية .

فقال سبحانه :

﴿ **سُبْحٰن الذىَ أسرَىٰ بعبدِهِ ليلاً منَ المَسجدِ الحرامِ إلى المسجد الأقصى** ﴾[2] .

وفى مقام الدعوة :

﴿ **وأنه لما قامَ عبدُ الله يَدعُوه كَادُوا يَكُونون عَليه لبداً** ﴾[3] .

وفى مقام الرد على من ادعى نبوة عيسى :

﴿ **إن هُوَ إلا عبدٌ أنعمْنَا عليه وجعلناهُ مثلاً لبنى إسرآءِيلَ** ﴾[4] .

(١) سورة الزاريات الآية ٥٦ ــ ٥٨ .
(٢) سورة الإسراء الآية ١ .
(٣) سورة الجن الآية ١٩ .
(٤) سورة الزخرف الآية ٥٩ .

وقالوا :

﴿ وقالوا اتخذ الرحمٰنُ ولداً ، لقد جئتم شيئاً إدّاً ، تكادُ السمٰواتُ يتفطرنَ منهُ وتنشقُ الأرضُ وتخِرُّ الجبَالُ هدّاً ، أن دعوا للرحمٰن ولداً ، وما ينبغِي للرحمٰن أن يتخذَ ولداً ، إن كل من فى السمٰواتِ والأرضِ إلا ءاتى الرحمٰن عبداً ﴾[٥] .

والمعانى العظيمة كأمر العبودية تحتاج إلى تركيز وكثرة تذكير فعلى أساسها يكون الفلاح والنجاح فى الدنيا والآخرة وسعادة الدارين منوطة بالقيام بهذا الواجب فإذا انضاف ترقيق القلوب بإضافة ياء الخطاب إلى كلمة عباد ﴿ ياعبادى ﴾ لم يبق بعد ذلك إلا الحياء والخجل من الله تعالى والمسارعة بتنفيذ أوامره سبحانه والإستقامة على شرعه وهذا ولاشك من لطيف الخطاب والواجب علينا أن نتأدب بأدب القرآن فى حديثنا للناس . قال تعالى : ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾ .

وقال : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾ . وقال : ﴿ وقل لِعبادى يقُولوا التى هَى أحسَنُ إن الشيطٰن يَنزغُ بينَهم إن الشيطٰن كان للإنسانِ عدواً مبيناً ﴾[٦] .

وفى خطاب إبراهيم عليه السلام لأبيه المشرك نلمس هذا الأدب والحرص على هداية أبيه وقد صدر خطابه له فى كل مرة يكلمه : ﴿ يٰأبتِ إنى قد جآءَنِى من العِلمِ ما لم يأتِكَ فاتبعنىّ أهدِكَ صراطاً سَوِيّاً ، يٰأبتِ لا تعبُدِ الشيطٰن إن الشيطٰن كان للرحمٰنِ عصياً ، يٰأبَتِ إنِىّ أخافُ أن يَمسَّكَ عذابٌ من الرحمٰنِ فتكُون للشيطٰنِ ولياً ﴾[٧] .

وعندما ذهبت السيدة خديجة رضي الله عنها لورقة ابن نوفل قالت له : أى عم

---

(٥) سورة مريم الآية ٨٨ ـــ ٩٣ .

(٦) سورة الإسراء الآية ٥٣ .

(٧) سورة مريم الآية ٤٣ ـــ ٤٤ ـــ ٤٥ .

على الرغم من أنه ابن عمها ولكنها فعلت ذلك توقيراً له وإحتراماً لكبر سنه كما قال النووى وقال عمر للشاب الذى أطال ثوبه : ياابن أخى قصر ثوبك فإنه أرضى لربك وأنقى لثوبك . ولما قدم سعد بن معاذ على النبى ﷺ قال : « قوموا لسيدكم فأنزلوه » ، وكان ابن عمر رضى الله عنهما يخاطب أباه بلفظ ياأمير المؤمنين وكذلك فعلت زوجة عمر بن عبد العزيز معه . ولما كان الإمام أحمد فى محنته أتاه تلميذه أبو سعيد يقول له : ياإمام قلها فإن لك عيالاً .

والشاهد من ذلك أن الألقاب شاعت فى السلف وقد أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم ، كما أمرنا أيضاً بتوقير الكبير دون إفراط أو تفريط ، فلا تسييد لكافر أو منافق ثم لابد من مراعاة أعراف الناس فى ذلك كالمناداة بالأستاذ فلان أو الدكتور فلان وإخراج الناس عن أعرافهم التى لا تصطدم بالكتاب والسنة فيه حرج منتفٍ شرعاً ثم لا يليق بالإنسان أن يصد عن سبيل الله أو أن يكون سبباً لتنفير الناس واستدخال الأذى على نفوس العباد وعليه أن يرفق بنفسه حتى لا ينسب لسوء الأدب وينبغى على المُخاطب أن يستوى عنده مادحه وذامه فى الحق وألا يستشعر لنفسه قدراً زائداً على الخلائق حتى لا يداخله الكبر والغرور والعجب وقد كان بعض الأعراب والجفاة ينادون رسول الله ﷺ « يامحمد » فنزلت سورة الحجرات تعلمهم مكارم الأخلاق ورعاية حقوق الأدب .

مســألة هامـة :

لا يصح تسييد النبى ﷺ فى الصلاة وذلك لأن صيغ التشهد توقيفية لا يصح الزيادة فيها ولا النقصان والكل عبد لله فى الصلاة . وبالتالى فلا تقل فى الصلاة « **اللهم صلى على سيدنا محمد** » ولكن قل « **اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد** .... » وكان الشافعى رحمه الله يقول : « كل محدثة بدعة وإن رآها الناس حسنة أما خارج الصلاة فيجوز والأولى أن تقتصر على ما اقتصر عليه الصحابة رضوان الله عليهم ومن تابعهم بإحسان فقد كانوا يقولون : قال رسول الله ﷺ كذا أو فعل كذا . ولاشك أنهم أعرف الخلق بقدر رسول الله ﷺ وأحرص

الناس على الأدب معه » .

﴿ ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ﴾ يعنى أنه منع نفسه من الظلم لعباده . كما قال عز وجل : ﴿ ومآ أنا بظلّٰمٍ للعَبِيد ﴾[8] .

وقال : ﴿ وما الله يُرِيدُ ظلماً للعٰلمين ﴾[9] .

وقال سبحانه : ﴿ وما الله يريد ظلماً للعبادِ ﴾ .

وقال : ﴿ وما ربُّكَ بظلّٰمٍ للعبيد ﴾[10] .

وقال : ﴿ إن الله لا يظلم الناسَ شيئاً ﴾[11] .

وقال : ﴿ إن الله لا يظلم مِثقالَ ذرةٍ ﴾[12] .

وقال : ﴿ ومن يَعمل من الصٰلحات وهو مؤمن فلا يخافُ ظلماً ولا هضماً ﴾ [سورة طه الآية : ١١٢]

والهضم أن ينقص من جزاء حسناته والظلم أن يعاقب بذنوب غيره ومثل هذا كثير فى القرآن وهو مما يدل على أن الله قادر على الظلم ولكن لا يفعله فضلاً منه وجوداً وكرماً وإحساناً إلى عباده ، وأما من فسره بالتصرف فى ملك الغير بغير إذنه وقد نقل نحوه عن إياس بن معاوية وغيره فإنهم يقولون إن الظلم مستحيل عليه وغير متصور فى حقه لأن كل ما يفعله فهو تصرف فى ملكه وبنحو ذلك أجاب أبو الأسود الدؤلى لعمران بن حصين حين سأله عن القدر (أفاده ابن رجب) .

وقال النووى فى شرحه لصحيح مسلم : « قال العلماء : معناه تقدست عنه وتعاليت والظلم مستحيل فى حق الله سبحانه وتعالى أى لأن الظلم تجاوز الحد والتصرف فى ملك الغير وكيف يتجاوز سبحانه حداً وليس فوقه من يطيعه ؟

---

(٨) سورة ق ٢٩ .

(٩) سورة آل عمران ١٠٨ .

(١٠) سورة فصلت الآية ٤٦ .

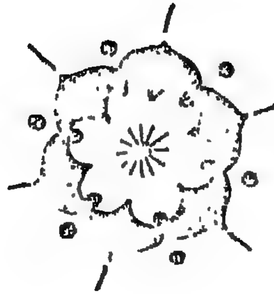
(١١) سورة يونس الآية ٤٤ .

(١٢) سورة النساء الآية ٤٠ .

وكيف يتصرف الله فى غير ملكه والعالم كله ملكه وسلطانه ؟ » أ . هـ .

فلا ظلم بين العباد فى الدنيا ولا فى الآخرة فالكل يتقلب بين الفضل والعدل ، فمن أسلم وأدخل الجنة ، فذلك محمول على الفضل . ومن كفر وأدخل النار ، فذلك محمول على العدل . وقد أنزل ربنا الكتب ، وأرسل الرسل ، وأودع فى العباد عقولاً ، وركب فيهم فطراً ليحيّى من حيَّى عن بينة ، ويهلك من هلك أيضاً عن بينة . ومن تمام رحمته سبحانه بخلقه : أن حرم الظلم على نفسه ولم يحرم أحد على ربه شيئاً كما كتب على نفسه الرحمة ولم يكتب أحد على ربه شيئاً . وكونه خلق أفعال العباد وفيها الظلم لا يقتضى وصفه بالظلم سبحانه وتعالى ، كما أنه لا يوصف بسائر القبائح التي يفعلها العباد وهى خلقه وتقديره . فإنه لا يوصف إلا بأفعاله ولا يوصف بأفعال عباده ، فإن أفعال عباده مخلوقاته ومفعولاته وهو لا يوصف بشيء منها ، إنما يوصف بما قام به من صفاته وأفعاله والله أعلم .

وكان من دعاء على ابن أبى طالب رضى الله عنه : « رب احملنى على فضلك ولا تحملنى على عدلك » .



هل الإنسان مسير أم مخير

لقد أصبح هذا السؤال على ألسنة الكثيرين من الناس يعبرون به عن حيرتهم ويودون لو عرفوا الإجابة الشافية عليه ، ويا ليتهم تعلموا ما لا يسع المسلم جهله من دين الله ، ورجعوا للعلماء أو كتب أهل العلم الثقات ، فمن يرجع لمثل ما كان عليه رسول الله وصحابته الكرام بدلاً من إضاعة الأوقات والأعمار فى حفظ الأغانى ، ومشاهدة التليفزيون ، ونحو ذلك مما يضر ولا ينفع .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى العقيدة الواسطية : « وتؤمن الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين : **فالدرجة الأولى** : الإيمان بأن الله تعالى عليم بالخلق وهم عاملون بعلمه القديم الذى هو موصوف به أزلاً فأبداً ، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصى والأرزاق والآجال ثم كتب الله فى اللوح المحفوظ مقادير الخلق فأول ما خلق الله القلم قال له : اكتب . قال : ما أكتب ؟ قال : **اكتب ماهو كائن إلى يوم القيامة** .

فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه جفت الأقلام وطويت الصحف . كما قال تعالى : **﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾**(١) . وقال : **﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾**(٢) .

وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون فى مواضع جملة وتفصيلاً فقد كتب فى اللوح المحفوظ ماشاء « **وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات فيقال له اكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد** »

---

(١) سورة الحج الآية ٧ .

(٢) سورة الحديد الآية ٢٢ .

ونحو ذلك فهذا التقدير قد كان ينكره غلاة القدرية قديماً ومنكروه اليوم قليل .

وأما **الدرجة الثانية** : فهى مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة وهو الإيمان بأن ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه ما فى السموات وما فى الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه . لا يكون فى ملكه ما لا يريد وأنه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات فما من مخلوق فى الأرض ولا فى السماء إلا الله خالقه سبحانه ، لا خالق غيره ، ولا رب سواه ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد والعباد فاعلون حقيقة والله خلق أفعالهم والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلى والصائم وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة والله خالقهم وإرادتهم كما قال تعالى : **﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُم أَن يَستَقِيمَ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّ العَٰلَمِينَ ﴾**[٣] .

وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين هم كما وصفهم النبى ﷺ مجوس هذه الأمة ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره . ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها أ . هـ . وهكذا فأنت ترى أن الله تعالى يعلم كل شيء وكتب كل شيء وفق علمه وحكمته ومشيئته سبحانه نافذة كما أنه خالق كل شيء . قال تعالى : **﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شيءٍ فَقَدرهُ تقديراً ﴾** .

والإيمان بالقدر على ما وصفنا لا ينافى أن يكون للعبد مشيئة فى أفعاله الإختيارية وقدرة عليها لأن الشرع والواقع دالان على إثبات ذلك له . قال تعالى : **﴿ فَمَن شَآءَ إتخذَ إلىٰ ربهِ مَئَاباً ﴾** . وقال : **﴿ فأتُوا حَرثَكُم أَنَّىٰ شِئتُم ﴾** . لكن مشيئة العبد وقدرته واقعتان بمشيئة الله تعالى وقدرته لقوله تعالى : **﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾** ، ولأن الكون كله ملك لله تعالى فلا يكون فى ملكه شيء بدون علمه ومشيئته .

---

(٣) سورة الإنفطار الآية ٢٨ ــ ٢٩ .

والإحتجاج بالقدر إنما يصح فى المصائب لا فى المعايب . والتسليم للقدر إنما يكون بعد بذل الوسع فى الأخذ بالأسباب . والقدر هو سر الله تعالى فى خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبى مرسل . والتعمق والنظر فى ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان . ومن سأل لما فعل فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين .

ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : « القدر نظام التوحيد فمن كذب بالقدر فقد نقص تكذيبه توحيده ، وإذا كان القدر سر مكتوم لا يعلم به إلا بعد وقوع المقدور ، فلماذا يعدل العبد عما ينفعه فى أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتج بالقدر » . وقد وضع البعض من القدر شماعة يعلق عليها تركه للواجبات وفعله للمعاصى ولهؤلاء حظ ونصيب من قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾(٥) .

وعن على ابن أبى طالب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : **« ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة فقال رجل من القوم : ألا نتكل يا رسول الله ؟ قال : لا إعملوا فكل ميسر ثم قرأ ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ »**

(رواه البخارى ومسلم)

وفى لفظ مسلم : « فكل ميسر لما خلق له ، فأمر النبى ﷺ بالعمل ونهى عن الإتكال على القدر . ويذكر أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه رفع إليه سارق استحق القطع ، فأمر بقطع يده . فقال : مهلاً ياأمير المؤمنين فإنما سرقت بقدر الله . فقال عمر : ونحن إنما نقطع بقدر الله » . وكان الجيلانى

(٤) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .

(٥) سورة النساء الآية ١٦٥ .

يقول : « كثير من الناس إذا ذكر القدر أمسكوا . أما أنا فقد نازعت أقدار الحق بالحق للحق » . ولذلك فنحن ندفع قدر الجوع بقدر الأكل وقدر العطش بقدر الشرب وقدر البلاء بقدر الدعاء وكلاهما بقضاء الله وقدره .

وقد ضل فى القدر طائفتان :

إحداهما : الجبرية الذين قالوا أن العبد مجبر على عمله وليس له فيه إرادة ولا قدرة . وهؤلاء جهلوا قوله تعالى :

﴿ من عَمَل صٰلحاً فلنفسهِ ومن أسَاء فعَليها وما ربُك بظلّٰم للعبيد ﴾[٦] .

﴿ وقل الحقُّ من ربكُم فمن شاءَ فليؤْمن ومن شاء فليكْفر ﴾[٧] .

ومعلوم أن كل إنسان يعلم الفرق بين أفعاله الإختيارية التى يفعلها بإرادته كالأكل والشرب والبيع والشراء ، وبين ما يقع عليه بغير إرادته كالإرتعاش من الحمى والسقوط من السطح . فهو فى الأول فاعل مختار بإرادته من غير جبر . وفى الثانى غير مختار ولا مريد لما وقع عليه .

الثانية : القدرية الذين قالوا إن العبد مستقل بعمله فى الإرادة والقدرة ، وليس لمشيئة الله تعالى وقدرته فيه أثر . وهذه الطائفة أيضاً ضالة فقد جهلوا قوله تعالى :

﴿ ولو شآءَ الله ما اقتَتلَ الذينَ من بعدهم من بعد ما جَآءتهُم البيناتُ ولكن اختلفوا فمنهُم من ءامنَ ومنهُم من كفر ولو شآءَ الله ما اقتَتلُوا ولٰكنَّ الله يفعلُ ما يريد ﴾[٨] .

﴿ ولو شئنا لأتينا كُلَّ نفسٍ هُداهَا ولكن حقَّ القولُ منى لأملأنَّ جهنَّم من الجنةِ والناسِ أجمعينَ ﴾[٩] .

والعبد مملوك لله تعالى ولا يمكن للمملوك أن يتصرف فى ملك المالك إلا بإذنه

---

(٦) سورة فصلت الآية ٤٦
(٧) سورة الكهف الآية ٢٩
(٨) سورة البقرة الآية ٢٥٣
(٩) سورة السجدة الآية ١٣

ومشيئته .

وهكذا فأنت ترى كيف احتجت كل طائفة على ما ذهبت إليه ببعض النصوص وأهملت البعض الآخر . ومن هنا كان الانحراف وأهل السنة هم الذين يعرفون الحق وبه يعدلون ويستمسكون بكل ما جاء فى كتاب الله وفى سنة رسول الله ﷺ .

...... فلا تظالمـوا

هو بفتح التاء أى لا تتظالموا والمراد لا يظلم بعضكم بعضا ، وهو توكيد لقوله : ﴿ **وجعلته بينكم محرماً** ﴾ . وزيادة تغليظ فى تحريمه . قال ابن رجب : « يعنى أنه تعالى حرم الظلم على عباده ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم فحرام على كل عبد أن يظلم غيره مع أن الظلم فى نفسه محرم مطلقاً **وهو نوعـان** :

أحدهمـا : ظـلم النفـس :

وأعظمه الشرك كما قال تعالى : ﴿ **إن الشرك لظلمٌ عظيم** ﴾ فإن المشرك جعل المخلوق فى منزلة الخالق ، فعبده وتألهه فهو وضع الأشياء فى غير مواضعها وأكثر ما ذكر فى القرآن وعيداً للظالمين إنما أريد به المشركون كما قال الله عز وجل : ﴿ **والكافرون هم الظالمون** ﴾ . ثم يليه المعاصى على اختلاف أجناسها من كبائر وصغائر .

والثـانى : ظـلم العبد لغيره :

وهو المذكور فى هذا الحديث وقد قال النبى ﷺ فى خطبته فى حجة الوداع : « **إن دمائكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا** » .

وروى عنه أنه خطب بذلك فى يوم النحر من يوم عرفة وفى اليوم الثانى من أيام التشريق . وفى رواية ثم قال : « **اسمعوا حتى تعيشوا ألا تظالموا إنه لا يحل مال**

امرىء مسلم إلا عن طيب نفس منه » . وفى الصحيحين عن ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : **« إن الظلم ظلمات يوم القيامة »** .

وفيهما عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال : **« إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم ﴾ »**(١٠) .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : **« من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يأخذ لأخيه من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه »** أ . هـ .



(١٠) سورة هود الآية ١٠٢ .

العـدل والإعتـدال والتـوازن والإتـزان

وهذه من جملة المعانى الواجبة حتى يأمن العبد الحيف والظلم والجور . ولكى تتحقق هذه الأمور لابد من بصيرة وحرص على الجمع بين المصالح وتقديم الأهم على المهم فى العلم والعمل والدعوة إلى الله تعالى والإستعانة بالله من قبل ومن بعد حتى ينتقل العبد من هذه الدار بسلام إلى دار السلام . وقد رأينا كثيراً من صور الخلل والجور فى نواحٍ متعددة فمثلاً نجد البعض إذا حرص على بر الوالدين بخس زوجته حقها ، وإذا أرضى زوجته يجور على والديه وكأنه لا سبيل للعدل ولا للإعتدال وكأنه أيضاً لا سبيل لتحقيق قول النبى ﷺ : **« إن لربك عليك حقا وإن لنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه »**

(رواه البخارى) .

وفريق آخر من الناس إذا أراد أن يدعو ويشارك فى إبلاغ الحق إلى الخلق تراه يترك العمل والتكسب أو يترك دراسته ولا شك أن الجمع يسير بإذن الله تعالى ، وخصوصاً إذا استحضر الإنسان سيرة الأنبياء والمرسلين ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم . والمؤمن همته عالية بإذن الله .

وإذا ذهبنا نستطرد سنجد فصلاً مريباً بين الدنيا والآخرة ، والأرض والسماء ، والظاهر والباطن ، والعلم والعمل ، والدين والدولة ، والعبادات والمعاملات ، وبين بعض العبادات وبعض ، وبعض السنن وبعض ، هذا الفصل الذى يحمل فى طياته حيفاً وجوراً وإضاعة لشرع الله فى جوانب الحياة المتعددة ، وعلى مستوى الفرد والدولة . ولذلك لا عجب أن ابتدأ الحديث بقوله : **﴿ ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ﴾** فالمسلم لا يظلم ولا يظلم فلا يصدر عنه ظلم لأحد ولا يقبل الظلم لنفسه من أحد إذ الظلم كله محرم ، سواء كان ظلماً لغيره لقول النبى ﷺ : **« من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة . فقال**

رجل : وإن كان يسيراً يارسول الله ؟ فقال : وإن كان قضيبا من أراك » رواه مسلم . وكذلك هو لا يظلم نفسه بترسيتها وتلويثها بالذنوب والمعاصى .

قال تعالى : ﴿ وما ظلمنٰهم ولٰكن كانوا أنفُسهُم يظلمونَ ﴾[1] . وأعظم الظلم الكفر بالله والشرك به سبحانه .

﴿ إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيمٌ ﴾[2] .

﴿ والكٰفرونَ هُمُ الظّٰلمونَ ﴾[3] .

ومن أعظم ما يعين على العدل والإعتدال تعظيم حرمات الله تعالى وإستحضار خطورة الظلم فى الدنيا والآخرة . مثل قوله تعالى :

﴿ ومَن يظلم مِنكم نُذِقهُ عَذَاباً كبيراً ﴾[4] .

ومثل قول النبى ﷺ : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » (رواه مسلم) . وقوله : « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين » متفق عليه . وقوله : « إن الله ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته ثم قرأ : وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » متفق عليه . وفى الحديث : « واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » متفق عليه . وقد بلغ من حرص سلف الأمة رضوان الله عليهم على العدل ، أنهم كانوا يسوون بين أولادهم حتى فى القبلة ، وذلك لأنهم رأوا العدل بمعناه العام من أوجب الواجبات وألزمها ، إذ أمر الله تعالى به فى قوله :

﴿ إنَّ الله يأمُر بالعَدلِ والإحسٰنِ وإيتآىءِ ذِى القُربَى ﴾[5] .

وأخبر تعالى أنه يحب أهله فى قوله :

---

(١) سورة النحل الآية ١١٨ .
(٢) سورة لقمان الآية ١٣ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٤ .
(٤) سورة الفرقان الآية ١٩ .
(٥) سورة النحل الآية ٩٠ .

﴿ وأقسطُوا إنَّ الله يُحبُّ المُقسطينَ ﴾[٦] .

وقد أمر به تعالى فى الأقوال ، كما أمر به فى الأحكام . قال تعالى :

﴿ وإذَا قُلتم فاعدِلُوا ولَو كَانَ ذَا قُربَىٰ ﴾[٧] .

وقال :

﴿ إنَّ الله يأمُركُم أن تُؤَدُوا الأمٰنٰت إلى أهلِها وإذَا حكمتُم بين النَّاس أن تحكُموا بالعَدلِ ﴾[٨] .

وفى الحديث : « **إن المقسطين عند الله على منابر من نور الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا** » (رواه مسلم) . وقال ﷺ : « **سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ، ورجل معلق قلبه فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله إجتمعا عليه ، وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه** » (رواه البخارى) . وكان النبى ﷺ يعدل بين نسائه فى النفقة والسكن والمبيت ويقول : « **اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما تملك ، ولا أملك** » . وقد ذهب الإمام أحمد وإسحاق والثورى وطاووس وبعض المالكية إلى أن التفضيل بين الأولاد باطل وجور ، ويجب على فاعله إبطاله . وقد صرح البخارى بهذا .

واستدلوا بحديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « **سووا بين أولادكم فى العطية ولو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء** » حسن الحافظ ابن حجر إسناده فى الفتح ، كما استدلوا أيضاً بقول النبى ﷺ لبشير : « **هذا جور لما نحل وأعطى إبنه النعمان عبداً ولم يعط بقية أولاده** » .

---

(٦) سورة الحجرات الآية ٩ .

(٧) سورة الأنعام الآية ١٥٢ .

(٨) سورة النساء الآية ٥٨ .

ومن أعظم صور العدل : العدل فى المعتقد . فلا يعتقد غير الحق ولا يشرك معه سبحانه فى عبادته وصفاته غيره وأن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر . وقد كان النبى ﷺ أحرص الخلق على العدل . ولذلك قال فى قصة ذى الخويصرة : « **ومن يعدل إذ لم أعدل** » ، ثم قام الخلفاء والصحابة من بعده رضوان الله عليهم بهذا الواجب أتم قيام ، فقد روى : « أن قيصر أرسل إلى عمر بن الخطاب رسولاً لينظر أحواله ويشاهد أفعاله ، فلما دخل المدينة سأل عن عمر وقال : أين ملككم ؟ فقالوا : ما لنا ملك بل لنا أمير قد خرج إلى ظاهر المدينة ، فخرج فى طلبه ، فرآه نائماً فوق الرمل وقد توسد درته وهى عصا صغيرة كانت دائماً بيده يغير بها المنكر . فلما رآه على هذه الحال وقع الخشوع فى قلبه ، وقال : رجل يكون جميع الملوك لا يقر لهم قرار من هيبته وتكون هذه حالته ، ولكنك ياعمر عدلت فنمت وملكنا يجور فلا جرم أنه لا يزال ساهراً خائفاً فاحرص رحمك الله على التأسى وعش حياة العدل والاعتدال دون غلو أو جفو ودون إسراف أو تقصير ودون إفراط أو تفريط ، ولن يتيسر لك ذلك إلا بالإستقامة على كتاب الله وعلى سنة رسول الله ﷺ ولا يسعك بعد ذلك إلا أن تستبشر خيراً ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[9] » .

فإذا كانت المظلمة بين العبد وبين الرب ، **فشرائط التوبة ثلاثة** :

١ ــ الندم .

٢ ــ الإقلاع عن الذنب .

٣ ــ والعزم على عدم العودة مرة ثانية إلى الذنب .

وفى الحديث « الندم توبة » حسنه الحافظ ابن حجر : « فإذا تضمنت المظلمة حقوق الآدميين فعلى التائب بالإضافة للشروط السابقة أن يصلح ما أفسد أو يسترضى من أخطأ فى حقه وذلك لأن هذه المظلمة تضمنت حقان : حقا لله

---

(٩) سورة الأحقاف الآية ١٣ ــ ١٤ .

وحقا لآدمى . فالتوبة منه بتحلل الآدمى لأجل حقه والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه ، فإذا كانت بقدح فى الآدمى بغيبة أو بقذف ، فعليه أن يتوب إلى الله ويذكر المغتاب أو المقذوف فى مواضع غيبته أو قذفه بضد ما ذكره به ويستغفر له » .

وذكر ابن تيمية « أن إعلام من أغتبناه يتضمن مفسدة محضة لا مصلحة فيها وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه فضلاً عن أن يوجبه أو يأمر به ومن إغتصب مالاً فعليه أن يرده لصاحبه ، فإن لم يجده فلورثته فإن لم يجدهم ، بعد البحث والتحرى يتصدق بالمال المغتصب عنهم » .

فقد روى « أن ابن مسعود رضى الله عنه اشترى من رجل جارية ودخل يزن له الثمن فذهب رب الجارية فانتظره حتى يئس من عودته ، فتصدق بالثمن وقال : اللهم هذا عن رب الجارية ، فإن رضى فالأجر له ، وإن أبى فالأجر لى وله من حسناتى بقدره » . وأما من عاوض غيره معاوضة محرمة وقبض العوض كبائع الخمر والمغنى ومشاهد الزور ، ثم تاب والعوض بيده ، فعليه أن ينفق هذا المال فى مصالح المسلمين ولا يستبقيه بيده إلا إن احتاجه فى سداد دين أو نفقة عيال واجبة ، كما قال ابن تيمية . وقد أمرنا ربنا جل وعلا بالتوبة ، فقال سبحانه : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾ .

فلا يرجو الفلاح إلا التائبون وقسم العباد إلى تائب وظالم ، وليس ثم قسم ثالث ، وأوقع اسم الظلم على من لم يتب فقال تعالى : ﴿ **ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** ﴾ . وكان النبى ﷺ يقول : « **يأيها الناس توبوا إلى الله فوالله إنى لأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة** » (رواه البخارى) .

﴿ ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته ﴾

قال المازرى رحمه الله : « ظاهر هذا أنهم خلقوا للضلال إلا من هداه الله تعالى » . وفى الحديث المشهور : « **كل مولود يولد على الفطرة** » أى فيحصل التعارض . وقال فى الجواب فقد يكون المراد بالأول وصفهم بما كانوا عليه قبل

مبعث النبى ﷺ أو أنهم لو تركوا وما فى طباعهم من إيثار الشهوات والراحة وإهمال النظر لضلوا (وهذا الثانى أظهر) . وفى هذا دليل لمذهب أصحابنا وسائر أهل السنة . إن المهتدى هو من هداه الله تعالى وبهدى الله إهتدى وبإرادة الله تعالى له ذلك والله سبحانه وتعالى إنما أراد هداية بعض عباده وهم المهتدون منهم ولم يرد هداية الآخرين ولو أرادها لاهتدوا خلافاً للمعتزلة فى قولهم : إنه سبحانه وتعالى أراد هداية الجميع جل الله أن يريد ما لا يقع فى ملكه ما لا يريد لأن ﴿ **ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن** ﴾ .

وكما قال العلماء : « إذا كان الهدى شيئا هو له فله أن يعطيه من يشاء ويمنعه ممن يشاء ولا ظلم بين العباد ولله المثل الأعلى ، كما لو كان عندك مال فأعطيته لمحمد ولم تعطه لعلى فتكون بذلك قد تفضلت على محمد وعدلت مع على ولأنه لا يجب عليك أن تدفع مالك لأحد لا لمحمد ولا لعلى وبالتالى فلا ظلم وإنما هو فضل وعدل » . وقال ابن رجب : « قد ظن بعضهم أنه معارضة لحديث عياض بن حمار عن النبى ﷺ يقول الله عز وجل : ﴿ **خلقت عبادى حنفاء** ﴾ . وفى رواية مسلمين : ﴿ **اجتالتهم الشياطين** ﴾ . وليس كذلك فإن الله خلق بنى آدم وفطرهم على قبول الإسلام والميل إليه دون غيره والتهيؤ لذلك والاستعداد له بالقوة ولكن لابد للعبد من تعلم الإسلام بالفعل فإنه قبل التعليم جاهل لا يعلم شيئاً كما قال عز وجل : ﴿ **وَوَجَدَكَ ضالاً فَهَدىٰ** ﴾[10] . والمراد وجدك غير عالم بما علمك من الكتاب والحكمة كما قال تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أوحَينَا إليكَ رُوحاً مِن أمرِنا ما كُنتَ تَدرى مَا الكِتٰبُ ولا الإيمٰنُ ولكِن جَعَلنٰه نوراً نَهدى به من نَشاءُ من عِبادِنا** ﴾[11] .

فالإنسان يولد مفطوراً على قبول الحق فإن هداه الله تعالى سبب له من يعلمه الهدى فصار مهديا بالفعل بعد أن كان مهديا بالقوة وإن خذله الله قيض له من يعلمه ما يغير فطرته كما قال ﷺ : « **كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه**

(١٠) سورة الضحى الآية ٧ .
(١١) سورة الشورى الآية ٥٢ .

أو ينصرانه أو يمجسانه » أ . هـ .

﴿ فاستهدونى أهدكم ﴾

لما كان المؤمن يحتاج إلى الهداية ليلاً ونهاراً بل وحاجته إليها أوكد من حاجة السمك إلى الماء وهذا المخلوق إلى الهواء بل لا صلاح للقلوب ولا للأرواح بدونها ولا تتصور حياة حقيقية فى غيابها . يقول تعالى : **﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾** ، ولهذا أمر الله عباده أن يقرءوا فى كل ركعة من صلاتهم قوله : **﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾** .

وكان النبى ﷺ يقول فى دعائه بالليل : « **إهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم** » ، ولهذا يشمت العاطس فيقال له : يهديكم الله ، كما جاءت به السنة . وقد أمر النبى ﷺ علياً أن يسأل الله السداد والهدى وعلم الحسن أن يقول فى قنوت الوتر « **اللهم اهدنى فيمن هديت** » .

وكان ﷺ يقول : « **اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى** » وبين الفضل الكبير فى التسبب فى هداية إنسان . فقال ﷺ لعلى ابن أبى طالب رضى الله عنه : « **لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم** » ، والإبل الحمر منها من أنفس أموال العرب . وقد ظن البعض أن المسلم لا يحتاج أن يدعى له بالهدى ، وجهلوا أن الإنسان يحتاج إلى هداية لمعرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام وإعانته على فعل ذلك .

يقول ابن القيم : « ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب ونيله أشرف المواهب ، علم الله عباده كيفية سؤاله وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم ، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم توسل إليه بأسمائه وصفاته وتوسل إليه بعبوديته ، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء » ، ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان فى حديثى الإسم

الأعظم اللذين رواهما ابن حبان فى صحيحه والإمام أحمد والترمذى ، أحدهما حديث عبد الله بن بريده عن أبيه قال : « **سمع النبى ﷺ رجلاً يدعو ويقول : اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك الله الذى لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . فقال : والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل بن أعطى** » . قال الترمذى : حديث صحيح ، فهذا توسل إلى الله بتوحيده وشهادة الداعى له بالوحدانية وثبوت صفاته المدلول عليها باسم الصمد إلى أن قال . والثانى حديث أنس : « **أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو : اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت ، المنان ، بديع السموات والأرض ، ذا الجلال والإكرام ، ياحى ياقيوم . فقال : لقد سأل الله باسمه الأعظم فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته** » .

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين وهما : التوسل بالحمد ، والثناء عليه وتمجيده ، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده . ثم جاء سؤال أهم المطالب وأنجح الرغائب وهو الهداية بعد الوسيلتين ، فالداعى به حقيق بالإجابة ، ونظير هذا ، دعاء النبى ﷺ الذى كان يدعو به إذا قام يصلى من الليل . رواه البخارى فى صحيحه من حديث ابن عباس : « **اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، والساعة حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى لا إله إلا أنت** » فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له ثم سأله المغفرة أ . هـ .

وقد ذكر مراتب الهداية الخاصة والعامة وهى **عشر مراتب** :

١ ــ مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة بل منه إليه .

٢ ــ مرتبة الوحى المختص بالأنبياء .

٣ ـــ إرسال الرسول الملكى إلى الرسول البشرى .

٤ ـــ مرتبة التحديث .

٥ ـــ مرتبة الإفهام .

٦ ـــ مرتبة البيان العام وهو تبين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه . وهذا البيان هو الذى بعثت به الرسل وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم وبعد ذلك يضل الله من يشاء . قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا أُرسَلْنَا مِن رسولٍ إلاَّ بلسانِ قومه ليبين لهُم فيضلُّ الله من يشاءُ ويهدى مِن يشآءُ وهو العزيز الحكيمُ** ﴾[١٢] . فالرسل تبين والله هو الذى يضل من يشاء ويهدى من يشاء بعزته وحكمته .

٧ ـــ البيان الخاص وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والإجتباء وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية البتة . قال تعالى : ﴿ **إن تحرص علىٰ هُداهم فإن الله لا يهدِى من يُضل** ﴾[١٣] . وقال : ﴿ **إنّك لا تهدى مَن أحببتَ ولٰكن الله يَهدى من يشاءُ** ﴾[١٤] .

٨ ـــ مرتبة الإسماع .

٩ ـــ مرتبة الإلهام .

١٠ـــ الرؤيا الصادقة (راجع تفسير الفاتحة لابن القيم) .

---

(١٢) سورة إبراهيم الآية ٤ .
(١٣) سورة النحل الآية ٣٧ .
(١٤) سورة القصص الآية ٥٦ .

الدعـــاء

تكرر الحث على الدعاء فى هذا الحديث القدسى ، تارة بطلب الهداية ، وأخرى بطلب الطعام ، وثالثة بطلب الكسوة ، ورابعة بطلب المغفرة ، وخامسة ببيان غناه سبحانه وأنه لو أعطى الخلائق كل ما يسألونه ما نقص ذلك من ملكه إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر فسبحان الله العظيم ذى الكرم الفياض والجود المتتابع وما أحسن قول القائل :

لا تسألن بنى آدم حاجـة   وسـل الذى أبوابه لا تحجـب
الله يغضـب إن تركت سؤاله   وإذا سألت بنى آدم يغضـب

وقد أمرنا سبحانه بالدعاء ووعدنا الإجابة فقال سبحانه :

﴿ وقَالَ رَبكُم ادعونى أستجب لكُم ﴾[1] .

وقال :

﴿ وإِذَا سألك عِبادى عَنى فإنى قريب أُجيبُ دَعوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[2] .

وجعل الدعاء عبادة فقال :

﴿ إنَّ الذين يَستكبِرونَ عن عبادتى سَيدخُلونَ جَهنَم دَاخِرينَ ﴾ .

وصح عن الرسول ﷺ أنه قال الدعاء هو العبادة ولن يهلك مع الدعاء أحد ولذلك كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « أنا لا أحمل هم الإجابة ولكن أحمل هم الدعاء ، فمن ألهم الدعاء فإن الإجابة معه » . والدعاء من أنفع الأدوية وهو عدو البلاء يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه إذا نزل .

وفى الحديث : « **الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء**

---

(١) سورة غافر الآية ٦٠ .

(٢) سورة البقرة الآيه ١٨٦ .

فيعتلجان إلى يوم القيامة » (رواه الحاكم والبزار) . وكذلك الدعاء يعد من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب ولكن قد يتخلف عنه أثره إما لضعفه في نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان ، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء . ولا ينبغي للإنسان أن يمتنع عن الدعاء لما يعلمه من نفسه فإن الله إستجاب دعاء شر الخلق عندما قال « رب فأنظرني إلى يوم يبعثون » فقيل له إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم .

واعلم أن سؤال الله عز وجل دون خلقه هو المتعين ، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل ، والمسكنة والحاجة والإفتقار ، وفيه الإعتراف بقدرة المسئول على رفع هذا الكرب ، ونيل المطلوب ، وجلب المنافع ، ودرأ المضار ولا يصلح الذل والإفتقار إلا لله وحده لأنه حقيقة العبادة .

وكان الإمام أحمد يدعو ويقول : « اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك ، ولا يقدر على كشف الضر وجلب النفع سواك » . كما قال : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير ، فلا راد لفضله » ، وقال : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، والله سبحانه يحب أن يسئل ويرغب إليه في الحوائج ، ويلح في سؤاله ودعائه ، ويغضب على من لا يسأله ويستدعي من عباده سؤاله ، وهو قادر على إعطاء خلقه كلهم سؤلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء » .

ولهذا قال وهب بن منبه لرجل كان يأتي الملوك : « ويحك تأتي من يغلق عنك بابه ، ويظهر لك فقره ، ويواري عنك غناه ، وتدع من يفتح لك بابه نصف الليل ونصف النهار ، ويظهر لك غناه ، ويقول ادعني أستجب لك » . وقال طاووس لعطاء : « إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه ، ويجعل دونها حجابه وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة ، أمرك أن تسأله ، ووعدك أن يجيبك ، فإذا سألت فسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن

إجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » (رواه الترمذى) . وقال حسن صحيح . وفى رواية : « تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » .

آداب الدعـــاء

١ ــ تجنب الحرام لما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يأيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يٰأيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا من الطَّيِّبٰت واعْمَلُوا صٰلِحاً إنِّى بما تعملون عَليمٌ ﴾[٣] . وقال : ﴿ يٰأيُّها الذين ءَامنوا كلوا من طِيِّبٰت ما رَزقْنٰكُم ﴾[٤] . ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث ، أغبر ، يمد يده إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك ؟ » (رواه مسلم) .

٢ ــ الإخلاص لله تعالى لقوله سبحانه : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾ .

٣ ــ تحرى وقت من أوقات الإجابة وهى كثيرة منها :

١ ــ ليلـة القـدر .

٢ ــ يوم عرفـة .

٣ ــ شـهر رمضـان .

٤ ــ يوم الجمعة وليلة الجمعة .

٥ ــ جوف الليل ووقت السـحر والثلث الأول والأخير من الليل .

٦ ــ عند النداء بالصلاة وبين الآذان والإقامة وعند الإقامة .

٧ ــ عند التحام الحرب .

---

(٣) سورة المؤمنون الآية ٥١ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٧٢ .

٨ ـــ دبر الصلوات المكتوبات .

٩ ـــ فى السجود .

١٠ ـــ عند ختم القرآن .

١١ ـــ عند قول الإمام ولا الضالين .

١٢ ـــ عند شرب ماء زمزم .

١٣ ـــ عند صياح الديكة .

١٤ ـــ عند إجتماع المسلمين فى مجالس الذكر .

١٥ ـــ عند تغميض الميت .

٤ ـــ لا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم ، ففى حديث أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال : **« ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم ، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها »** (أخرجه أحمد والبزار والحاكم) وقال صحيح الإسناد .

٥ ـــ يرفع يديه بالدعاء فى خشوع وتذلل لقول رسول الله ﷺ : **« إن الله حيى كريم يستحى إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صفراً خائبتين »** (رواه أبو داود والترمذى وحسنه) .

٦ ـــ أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة . قال رسول الله ﷺ : **« لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى أن شئت ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له »** متفق عليه من حديث أبى هريرة .

٧ ـــ تقديم عمل صالح بين يدى الدعاء لحديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة ، كما فى الصحيحين ، فقد توسل كل واحد منهم بأعظم أعماله التى عملها لله تعالى فاستجاب ربنا دعاءهم وارتفعت عنهم الصخرة .

٨ ـــ أن يدعو العبد على طهارة تامة مستقبل القبلة ، ويكرر الدعاء ثلاثا ، وقد

كان النبى ﷺ يكره أن يذكر الله إلا على طهر . وقد صنع النبى ﷺ ذلك فى دعائه يوم بدر وغيره فإذا صلى ركعتين ودعا فهو تمام الأمر .

٩ ــ لا يجوز الإعتداء فى الدعاء . قال تعالى : ﴿ **ادعو ربكم تضرعاً وخفية أنه لا يحب المعتدين** ﴾ . فلا يصح الدعاء بمستحيل أو بأمر قد فرغ منه لما رواه مسلم من حديث أم حبيبة رضى الله عنها : « **لما سمعها النبى ﷺ تدعو له ﷺ ولأبيها ولأخيها أن أن يمتعها الله بهم ، فقال ﷺ : لن يعجل الله شيئاً قد أجله** » (رواه مسلم) .

١٠ ــ أن يثنى على الله بما هو أهله ويدعوه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وذلك « **أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : « اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » فقال : لقد سألت الله تعالى باسمه الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب** » أخرجه أبو داود والترمذى وابن حبان وصححه الحاكم .

« **ولما سمع رجلاً يقول : اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، ياحيى ، ياقيوم . فقال رسول الله ﷺ : لقد دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى** » .

١١ ــ ويعترف بذنبه . قال رسول الله ﷺ : « **دعوة ذى النون إذ ذعا بها وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك أنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجاب له** » (رواه الترمذى) . وزاد الحاكم فى طريق عنده : فقال رجل : يارسول الله هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **ألا تسمع قول الله عز وجل : ﴿ ونجيناه من الغم ﴾ أى يونس ﴿ وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ فعلى العبد أن يكثر من قوله : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** » » . ومن ذلك أيضاً ما رواه مسلم من

حديث على رضى الله عنه وفيه : « **ظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفر لى ذنوبى جميعها** » .

١٢ـ لا ينبغى تعجل الإجابة لحديث أبى هريرة : **أن رسول الله ﷺ قال : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لى »**

(رواه البخارى ومسلم)

١٣ـ يصلى على النبى ﷺ ويخفض صوته لحديث : « **أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً** » وهو فى الصحيحين . ويبدأ بنفسه وذلك لأن « **رسول الله ﷺ كان إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه** » أخرجه الترمذى . وقال حديث حسن ، صحيح غريب . وكذا فعل لما دعا لهود (أخا عاد) وقال تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ اغفر لى ولأخِى وأدخلنا فِى رَحمتِك وأنتَ أرحم الراحِمِينَ** ﴾[٥] . كما ينبغى أن يلح بالدعاء لأن الله تعالى يحب الملحين فى الدعاء .

١٤ـ ولا يخص نفسه بالدعاء إن كان إماماً . لحديث : « **لا يؤم رجل قوماً فيخص نفسه بالدعاء دونهم فقد خانهم** » (أخرجه الترمذى وحسنه) ، وينبغى أن يؤمن الداعى والمستمع على الدعاء . ويسأل الإنسان حاجته كلها حتى شِسع نعله إذا انقطع ، ولا يتحجر واسعا لما ثبت عن رسول الله ﷺ : « **إنه لما سمع الأعرابى يقول : اللهم ارحمنى ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً . قال له : لقد تحجرت واسعاً** » .

١٥ ـ ويمسح وجهه بيديه فقط دون البدن بعد الدعاء وذلك خارج الصلاة ، والحديث فى ذلك من جملة الحسن لغيره ، كما قال الحافظ ابن حجر وغيره :

الذين يستجيب الله تعالى دعاءهم :

١ ـ المضطر .

---

(٥) سورة الأعراف الآية ١٥١ .

٢ ـ المظلوم .
٣ ـ الوالد على ولده .
٤ ـ الإمام العادل .
٥ ـ المسلم ما لم يدع إثم أو قطيعة .
٦ ـ الولد البار بوالديه .
٧ ـ المسافر .
٨ ـ الصائم .
٩ ـ دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب .

دعوات مستجابة

قال رسول الله ﷺ : « **من تعار من الليل (أى استيقظ) فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، الحمد لله ، وسبحان الله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : اللهم اغفر لى ، أو دعا استجيب له ، فإن توضأ ، وصلى قبلت صلاته** » (رواه البخارى) . وقال رسول الله ﷺ : « **من دعا بهؤلاء الكلمات الخمس ، لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله** » (أخرجه الطبرانى فى الكبير) .

« **ولما سمع النبى ﷺ رجلا يقول : ياذا الجلال والإكرام . فقال : قد استجيب لك فسل** » (أخرجه الترمذى) . وعن عطاء قال : « ما قال عبد يارب ثلاث مرات إلا نظر الله إليه » ، فذكر ذلك للحسن فقال : أما تقرءون القرآن ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **الذينَ يذكرونَ اللهَ قيٰماً وقعوداً وعلىٰ جُنُوبِهم وَيتفكرونَ فى خَلق السموات والأرضَ * رَبنَا ما خَلَقت هٰذا باطلاً سبحٰنك فقِنا عذابَ النَّار * رَبنا إنَّكَ مَن تُدخل النار فقد أخزيته وما للظالمينَ من أنصار * رَبنا إنَّنا سَمعنا مُنادياً ينَادِى للإيمٰن أن ءَامنوا بربكُم فأَمَنَّا * ربَّنَا فاغفِر لنا ذُنُوبنَا وكفرٌ عَنا**

سيئاتِنا وتَوَفنا مع الأبرار * رَبَّنا وءَاتِنا ما وعَدتنا علىٰ رُسلِك ولا تخزنا يومَ القيٰمة إنك لا تخلف الميعاد ﴾[6] .

مســـألة هامـــة :

التوسل المشروع إنما يكون :

١ ــ بالعمل الصالح ، كما فى حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار فأطبقت عليهم الصخرة .

٢ ــ بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى ، كما فى دعاء : « **ياحيى ، ياقيوم ، برحمتك نستغيث** » .

٣ ــ طلب الدعاء ممن نتوسم فيه الصلاح كقول النبى ﷺ لعمر رضى الله عنه : « **لا تنسنا ياأخى فى دعائك** » وإذا كان لا يجوز التوسل بالنبى ﷺ فى مغيبة ولا من بعد موته فمن باب أولى لا يجوز التوسل بالأولياء والصالحين من المقبورين ، أما التوسل بحبنا لرسول الله ﷺ وإيماننا به ومتابعتنا له فهو من التوسل المشروع لأنه توسل بعمل صالح .

ياعبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم

وهذا يقتضى أن جميع الخلق مفتقدون إلى الله تعالى فى جلب مصالحهم ودفع مضارهم فى أمور دينهم ودنياهم وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كله ، وأن من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق ، فإنه يحرمهما فى الدنيا .

وقد استدل إبراهيم الخليل عليه السلام بتفرد الله بهذه الأمور على أنه : لا إله غيره وأن كل ما أشرك معه باطل . فقال لقومه : **﴿ أفرءيتُم ما كنتم تعبدون أنتم وءاباؤكم الأقدمون فإنهم عَدوٌ لى إلا رَبَّ العٰلمين الذى خلقنى فَهُو يهدينِ والذى هُوَ يطعمنى ويَسقين وإذا مَرضتُ فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين**

---

(٦) سورة آل عمران الآية ١٩٤ .

والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين رب هَب لىٰ حكماً وألحقنى بالصٰلحينَ ﴾(٧) .

فإن من تفرد بخلق العبد وبهدايته ، وبرزقه ، وإحيائه ، وإماتته فى الدنيا ، وبمغفرة ذنوبه فى الآخرة ، مستحق أن يفرد بالألوهية والعبادة والسؤال والتضرع والإستكانة له . قال الله عز وجل : **﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم ۞ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحٰنه وتعالى عما يشركون ﴾**(٨) .

وفى الحديث دليل على أن الله يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك ، كما يسألونه الهداية والمغفرة . وفى الحديث : « **ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع** » . وكان بعض السلف يسأل الله فى صلاته كل حوائجه حتى ملح عجينه وعلف شاته . فإن كل ما يحتاج العبد إليه إذا سأله من الله ، فقد أظهر حاجته فيه وإفتقاره إلى الله ، وذلك يحبه الله وكان بعض السلف يستحى من الله أن يسأله شيئاً من مصالح الدنيا والاقتداء بالسنة أولى والخلائق تقر بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المحيى المميت .

﴿ قُل لمن الأرضَ ومن فيها إن كنتمْ تَعلمَون سَيقولون لله قُل أفلا تذكرّون ﴾(٩) .

﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾(١٠) .

وفى الحديث : « **لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً** » ، فالرزق من الله وما الخلائق إلا سبب فى إيصال الأرزاق المقسومة للعباد ، فلا ينبغى أن يخلق هو ويُعبد غيره ، ويرزق هو ويشكر

---

(٧) سورة الشعراء الآية ٧٥ .

(٨) سورة الروم الآية ٤٠ .

(٩) سورة النمل .

(١٠) سورة الذاريات الآية ٢٢ .

سواه . والمخلوق بعد أن يحرث الأرض ، ويبذر الحب ، ويأخذ بالأسباب المقدورة والمستطاعة له ، عليه أن يتوكل على ربه فى إنزال المطر ، ودفع الآفات والصواعق عن هذه الأرض ، ولذلك قالوا : ليكن عملك فى الأرض ، ونظرك فى السماء ، وسؤال الله ودعاؤه من أعظم أسباب الرزق ، وطاعة الله تعالى سبب كل سعادة فى الدارين ، ولذلك يقول تعالى : ﴿ **فَقُلت استغفروا رَبّكم إنهُ كَانَ غفاراً يُرسل السَمَاءَ عَليكم مدراراً ويمددكم بأموالٍ وبنين ويَجعل لكم جنٰت ويَجعل لكُم أنهٰراً** ﴾(١١) .

وهذه المعانى التى احتج بها إبراهيم على قومه والتى جعلها دليلاً على هدايته ، قيل إنما ذكرها إحتجاجاً على وجوب الطاعة ، لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها ، وهذا إلزام صحيح . وعلى العبد أن يحمد ربه على رزقه ، فإذا فرغ من طعامه قال : « **الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة** » ، كما أن عليه أن يدعو لمن كان سببا فى إيصال الخير له ، فإذا أكل عند قوم وفرغ فليدع لهم : « **اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واغفر لهم وارحمهم** » .

ياعبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم

تذكر بدايتك ونهايتك لتعرف ضعفك وعجزك وفقرك ، وتحسس نعمة ربك عليك ، حتى تقوم بواجب العبودية ، وتعيش حياة الإستقامة . فعن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال : « **ياأيها الناس إنكم تحشرون إلى الله » حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا إنا كنا فاعلين ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ، ألا وإنه سيجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يارب أصحابى . فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء**

(١١) سورة نوح الآية ١٠ .

شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم . قال : فيقال لى إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » (رواه مسلم) .

وفى الحديث يقول رسول الله ﷺ : « ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى ، إنهم يجعلون له نداً ويجعلون له ولداً وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم » . وقد ذكر ربنا جل وعلا نعمة الكسوة فى معرض الإمتنان فقال سبحانه : ﴿ يَٰبنى ءادَمَ قَد أنزَلنَا عَلَيكُم لباساً يوارِى سوءاتِكم وريشاً ولِبَاسُ التقوىٰ ذَٰلكَ خَيرٌ ذلكَ من ءايَٰتِ الله لَعَلهم يَذَّكَّرُونَ ﴾[١٢] .

فبين سبحانه أنه جعل لخلقه ما يسترون به عوراتهم ، ودل على الأمر بالتستر . ولا خلاف بين العلماء فى وجوب ستر العورة عن أعين الناس ، وستر العورة من جملة الإنعام ، وقوله تعالى : ﴿ أنزلنا عليكم لباساً ﴾ يعنى المطر الذى ينبت القطن والكتان ، ويقيم البهائم الذى منها الأصواف والأوبار والأشعار ، ثم بين سبحانه أن خير لباس ، هو لباس التقوى . فإذا سترتم عوراتكم ، وهذا واجب فاحرصوا على تقوى الله حتى تتجنبوا سخطه وأليم عذابه والجزاء من جنس العمل كما فى الحديث الذى رواه مسلم : « ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » .

وأهل الجنة يكسون من حللها ، ولذلك قال تعالى مخاطباً آدم :

﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ .

فإذا خرج من الجنة فسيعمل لكفاية هذه الأمور الأربعة وعلى العبد أن يستعين بربه فى قضائها ، وأن يشكره على إنعامه وإفضاله ، ولذلك ينبغى عليه إذا لبس ثوبه أن يقول : « الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة » .

وفى الحديث : « اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » ، وإذا رأى الإنسان على صاحبه ثوباً جديداً ، يقول له : تبلى ويخلف الله . وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١٢) سورة الأعراف الآية ٢٦ .

« صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط ، كأذناب البقر ، يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا » (رواه مسلم) . قال النووى فى شرحه : « هذا الحديث من معجزات النبوة فقد وقع ما أخبر به ﷺ ، فأما أصحاب السياط فهم غلمان والى الشرطة أما الكاسيات ففيه أوجه :

أحدها : معناه كاسيات من نعمة الله ، عاريات من شكرها .

والثانى : كاسيات من الثياب ، عاريات من فعل الخير والإهتمام لآخرتهن ، والإعتناء بالطاعات .

والثالث : تكشف شيئا من بدنها ، إظهاراً لجمالها فهن كاسيات عاريات .

والرابع : يلبس ثياباً رقاقاً تصف ما تحتها كاسيات عاريات فى المعنى » أ . هـ .

نعمٌ لا تعد ولا تحصى

﴿ وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ .

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ .

وأجل نعم الله علينا : نعمة الهداية ، وكفى بنعمة الإسلام نعمة ، ونعمة الطعام والشراب والكسوة ومغفرة الذنوب وإجابة الطلبات وكشف الكربات ، أظهر أمننا وبسط رزقنا وأحسن معافاتنا .

« فاللهم لك الحمد على نعمة المال والأهل والولد ، لك الحمد بما خلقتنا ، ورزقتنا ، وهديتنا ، وعلمتنا ، وأنقذتنا ، وفرجت عنا ، ولك الحمد بالإيمان ، ولك الحمد بالإسلام ، ولك الحمد بالقرآن ، لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا ، فى قديم ، أو حديث ، أو سرًا أو علانية ، أو خاصة أو عامة ، أو حى أو ميت ، أو شاهد أو غائب ، تم نورك فهديت ، فلك الحمد ، عظم حلمك ، فغفرت ، فلك الحمد بسطت يدك فأعطيت ، فلك الحمد تطاع ربنا فتشكر ، وتُعصى فتغفر ، وتجيب المضطر وتكشف الضر ، وتشفى السقيم ، وتغفر الذنب ، وتقبل التوبة ، يامن أظهر الجميل وستر القبيح ، يامن لا يؤاخذ بالجريرة ولا يهتك الستر ، ياحسن التجاور ، ياواسع المغفرة ، ياباسط اليدين بالرحمة ، ياصاحب كل نجوى ، يامنتهى كل شكوى ، ياكريم الصفح ، ياعظيم المن ، يامبتدأ بالنعم قبل إستحقاقها ، اللهم أنت أحق من ذكر وأحق من عبد ، وأعظم من ابتغى ، وأرأف من ملك ، وأجود من سئل ، وأوسع من أعطى ، أنت الملك لا شريك لك ، والفرد لا ند لك ، كل شيء هالك إلا وجهك ، لن تطاع إلا بإذنك ، ولن تعصى إلا بعلمك ، تطاع فتشكر ، وتعصى فتغفر ، أقرب شهيد وأدنى حفيظ ، حُلت دون النفوس ، وأخذت بالنواصى ، وكتبت الآثار ، ونسخت الآجال ، القلوب لك مفضية ، والسر عندك علانية ، الحلال ما

أحللت ، والحرام ما حرمت ، والدين ما شرعت ، والأمر ما قضيت ، الخلق خلقك ، والعبد عبدك ، وأنت الرءوف الرحيم » .

قال تعالى :

﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ .

فالشكر قيد النعم ، وسبب المزيد ، ولذلك قال عمر بن عبد العزيز : « **قيدوا نعم الله بشكر الله** » . وكان على ابن أبى طالب رضى الله عنه يقول : « **إن النعمة موصولة بالشكر ، والشكر يتعلق بالمزيد وهما مقرونان فى قرن ، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد** » . وقال الحسن : « **أكثروا من ذكر هذه النعم ، فإن ذكرها شكر** » . وقد أمر الله نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال :

﴿ وأمّا بنعمِة ربك فَحَدِّثِ ﴾[1] .

وثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ « **أنه قام حتى تفطرت قدماه فقيل له : أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك ، وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً** » . وقال لمعاذ : « **والله إنى لأحبك فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة : اللهم أعنى على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك** » (رواه أحمد والحاكم) وصححه ووافقه الذهبى .

والشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح ، فالقلب للمعرفة والمحبة ، واللسان للثناء والحمد ، والجوارح لإستعمالها فى طاعة الله ، وكفها عن معاصيه . وقد أطلق ربنا جزاء الشكر ، بينما قيد ثواب كثير من الطاعات فقال : **﴿ وسنجزى الشاكرين ﴾** .

ولذلك جعل إبليس غايته أن يسعى فى قطع الناس عنه ، فقال : **﴿ ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾** .

---

(١) سورة الضحى الآية ١١ .

ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ولذلك يقول ربنا جل وعلا : ﴿ **وقليل من عبادى الشكور** ﴾

وفى تفسير قوله تعالى :

﴿ **سَنَستَدرِجُهم من حَيثُ لا يَعلمُونَ** ﴾[٢] .

قال سفيان : « يسبغ عليهم نعمه ويمنعهم شكره » ، وقال غير واحد : « كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة » .

وكتب بعض العلماء إلى أخ له :

« أما بعد: فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه ، فما ندرى أيهما نشكر ، أجميل ما يسر ، أم قبيح ما ستر . بل المصائب التى تتنزل بالعباد لو تدبرنا فيها لوجدناها تستوجب الشكر والحمد لله قال شريح : ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم : ألا تكون كانت فى دينه،وألا تكون أعظم مما كانت ، وأنها لابد كائنة ، فقد كانت » فهو سبحانه المحمود بكل لسان .

وعلى كل حال :

﴿ **فَسَبِح بحَمدِ رَبّكَ وكُن مِنَ السّٰجدين واعبد رَبّك حَتىٰ يأتِيكَ اليَقِينُ** ﴾[٣] .

ياعبـادى إنكـم تخطئـون بالليـل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فإستغفرونى أغفر لكم

على الرغم من كثرة إحسانه وأياديه وإتصافه بصفات الكمال ، ونعوت الجلال إلا أن العباد بارزوا ربهم بكل قبيح ، وهتكوا كل ستر وهم فى قبضته ، وتحت قهره وسلطانه ، فليس يخرج واحد منهم من سلطانه إلى سلطان غيره ، ولا من ملكه إلى ملك غيره ، وهو سبحانه أحق أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا

(٢) سورة القلم الآية ٤٤ .

(٣) سورة الحجر الآية ٩٨ ، ٩٩ .

ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، يرحم عبده حيث لا يرحم نفسه ، ويستر عبده حيث لا يستر نفسه ، ويستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه ، ثم هم بعد ذلك يواصلون الليل بالنهار فى المعاصى فدعاهم إلى عفوه وغفرانه .

وقال سبحانه :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الغفورُ الرَّحِيمُ وأَنَّ عَذَابِى هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ ﴾(٤) .

وقال :

﴿ قُلْ يٰعبادِيَ الذينَ أسرفوا علىٰ أنفُسِهِم لا تقنطُوا مِن رَّحمةِ الله إنَّ الله يَغفرُ الذُنوبَ جَمِيعاً ﴾ .

وقال :

﴿ والَّذينَ إذا فَعَلُوا فٰحِشَةً أو ظلموا أنفُسهُم ذَكَرُوا الله فَاستغفروا لذُنُوبِهم ومَن يغفر الذُنُوبَ إلا الله ولمَ يُصرُّوا علىٰ ما فَعَلوا وهُم يَعلمُونَ ﴾ .

بل دعا إليها من قال إن الله ثالث ثلاثة فقال سبحانه :

﴿ قُل للَّذين كَفَرُوا إن يَنتهُوا يغفر لهُم ما قد سَلَفَ وإن يَعُودوا فَقَد مَضَتْ سُنَّتُ الأَولِينَ ﴾ .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : ﴿ ياابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ياابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ، ياابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة ﴾ » (رواه الترمذى) وقال حديث حسن صحيح .

وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل فى أرض دوية (صحراء) مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى

(٤) سورة الحجر الآية ٥٠ .

أدركه العطش ثم قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « يامعشر النساء تصدقن وأكثرن من الاستغفار فإنى رأيتكن أكثر أهل النار ، قالت امرأة منهن : مالنا أكثر أهل النار ؟ قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير . ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن . قالت : ما نقصان العقل والدين ؟ قال : شهادة امرأتين بشهادة رجل وتمكث الأيام لا تصلى » (رواه مسلم) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل موته : سبحان الله وبحمده استغفر الله ، وأتوب إليه » متفق عليه . وكان يقول أيضاً : « أنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » (رواه مسلم) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » (رواه البخارى) ، وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم » (رواه مسلم) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « كنا نعد لرسول الله ﷺ فى المجلس الواحد مائة مرة رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم » (رواه أبو داود والترمذى) ، وقال حديث حسن صحيح .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من لزم الاستغفار ، جعل الله له من كل ضيق مخرجا ، ومن كل هم فرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » (رواه أبو داود) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ، وأتوب إليه ، غفرت ذنوبه وإن

كان قد فر من الزحف » (رواه أبو داود والترمذى والحاكم) ، وقال حديث صحيح على شرط البخارى ومسلم .

وعن شداد بن أوس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **سيد الاستغفار أن يقول العبد (اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) من قالها فى النهار موقناً بها ، فمات من يومه ، قبل أن يمسى ، فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها ، فمات قبل أن يصبح ، فهو من أهل الجنة** » (رواه البخارى) .

وعن ثوبان رضى الله عنه قال : « **كان رسول الله ﷺ : إذا انصرف من صلاته ، استغفر الله ثلاثاً ، وقال : اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت ياذا الجلال والإكرام ، قيل للأوزاعى .. وهو أحد رواته ــ كيف الاستغفار ؟ قال : يقول : أستغفر الله استغفر الله** » (رواه مسلم) . وفى الصحيح عن النبى ﷺ : « **أن عبداً أذنب ذنباً فقال : يارب إنى عملت ذنباً فأغفر لى ، فقال الله : عِلم عبدى أن له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب قد غفرت لعبدى** » .

وفى حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « **أنه لما ركب دابته حمد الله ثلاثاً ، وكبر ثلاثاً وقال : سبحانك إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ثم ضحك وقال : إن ربك ليعجب من عبده إذا قال : رب اغفر لى ذنوبى ، يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيرى** » (أخرجه الإمام أحمد والترمذى) وصححه .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال : « **والله لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها** » . « كان بعض أصحاب ذى النون يطوف ينادى آه أين قلبى . من وجد قلبى ؟ فدخل يوما بعض السكك فوجد صبياً يبكى وأمه تضربه ثم أخرجته من الدار وأغلقت الباب دونه فجعل الصبى يلتفت يميناً وشمالاً لا يدرى أين يذهب

ولا أين يقصد فرجع إلى باب الدار فجعل يبكى ويقول : ياأماه من يفتح لى الباب إذا أغلقت عنى بابك ؟ ومن يدنينى إذا طردتينى ومن الذى يدينى إذا غضبت على ؟ فرحمته أمه فنظرت من خلل الباب فوجدت ولدها تجرى الدموع على خديه متعكاً فى التراب ففتحت الباب وأخذته حتى وضعته فى حجرها وجعلت تقبله وتقول ياقرة عينى وياعزيز نفسى أنت الذى حملتنى على نفسك وأنت الذى تعرضت لما حل بك لو كنت أطعتنى لم تلق منى مكروهاً فتواجد الفتى ثم قام فصاح وقال : قد وجدت قلبى قد وجدت قلبى » .

وتفكروا فى قوله تعالى فى حق الثلاثة الذين خلفوا :

« حَتّى إذا ضَاقَت عَلَيهم الأَرضُ بِما رَحُبَت وضَاقت عَلَيهم أنفُسُهم وظَنوا أن لا ملجأَ مِن اللهِ إلاّ إليهِ »[٥] .

فإن العبد إذا خاف من مخلوق هرب منه وفر إلى غيره ، وأما من خاف من الله فما له من ملجأ يلجأ إليه ، ولا مهرب يهرب إليه ، إلا هو فيهرب منه إليه ، كما كان النبى ﷺ يقول فى دعائه : **« لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك »** ، وكان يقول : **« أعوذ برضاك من سخطك ، وبعفوك من عقوبتك ، وبك منك »** .

قال الفضيل بن عياض : « ما من ليلة اختلط ظلامها ، وأرخى الليل سربال سترها ، إلا نادى الجليل جل جلاله : من أعظم منى جوداً والخلائق له عاصون ، وأنا له مراقب ، أكلؤهم فى مضاجعهم ، كأنهم لم يعصونى ، وأتولى حفظهم ، كأنهم لم يذنبوا فيما بينى ، وبينهم ، أجود بالفضل على العاصى ، وأتفضل على المسيء ، من ذا الذى دعانى فلم أستجب إليه ، أم من الذى سألنى فلم أعطه ، أم من الذى أناخ ببابى فنحيته ، أنا الفضل ، ومنى الفضل ، أنا الجود ، ومنى الجود ، وأنا الكريم ، ومنى الكرم ، ومن كرمى أن أغفر للعاصين بعد المعاصى ، ومن كرمى أن أعطى العبد ما سألنى ، وأعطيه ما لم يسألنى ، ومن كرمى أن أعطى التائب كأنه لم يعصنى ، فأين إلى غيره يهرب الخلائق ، وأين عن بابه يلتجيء العاصون ؟ » أخرجه أبو نعيم .

---

(٥) سورة التوبة الآية ١١٨ .

ماذا يفعل من إقترف جرماً واستوجب حداً

لاشك أن الحدود كفارة لأهلها وذلك لما رواه البخارى ومسلم عن عبادة بن الصامت قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى مجلس فقال : « **تبايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، فمن وفى منكم ، فأجره على الله ، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به ، فهو كفارة له ، ومن أصاب شيئاً من ذلك ، فستره الله عليه ، فأمره إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عذبه** » .

وإقامة الحدود وإن كانت مكفرة للآثام ، فإنها مع ذلك زاجرة عن اقترافها ، فهو جوابر وزواجر معاً ، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال بشأن الغامدية بعد رجمها : « **إنها تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له** » ، وقال بشأن ماعز الأسلمى : « **والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها** » ، وذلك بعد أن أقر بزناه ورجم .

وفى الحديث الذى رواه النسائى وابن ماجه عن أبى هريرة : عن النبى ﷺ قال : « **حد يعمل به فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحاً وكل عمل من شأنه أن يعطل إقامة الحدود ، فهو تعطيل لشرع الله ومحاربة له ، لأن ذلك من شأنه إقرار المنكر ، وإشاعة الشر ، والشفاعة لإسقاط الحدود بعد وصول الجريمة إلى الحاكم ، وثبوتها عنده شفاعة باطلة** » .

فعن عائشة قالت : « **كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده ، فأمر النبى ﷺ بقطع يدها فأتى أهلها أسامة بن زيد ، فكلموه فكلم النبى ﷺ فيها ، فقال له النبى ﷺ : يا أسامة لا أراك تشفع فى حد من حدود الله عز وجل . ثم قام النبى ﷺ خطيباً فقال : إنما هلك من كان قبلكم بأنه إذا سرق فيهم الشريف ، تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف ، قطعوه ، والذى نفسى بيده لو كانت فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ... فقطع يد المخزومية** » (رواه أحمد

ومسلم والنسائى) وأخرج أحمد وأهل السنن ، وصححه الحاكم من حديث صفوان بن أمية أن النبى ﷺ قال له لما أراد أن يقطع الذى سرق رداءه فشفع فيه : « **هلا كان قبل أن تأتينى به** » .

والستر على الجانى لا بأس به ، وخصوصاً إذا لم يكن مشهوراً بمواقعة الفواحش ، وذلك لما رواه ابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : « **من ستر عورة أخيه ستر الله عورته يوم القيامة ، ومن كشف عورة أخيه كشف الله عورته حتى يفضحه فى بيته** » .

ولقول النبى ﷺ لهزال عندما جاء بماعز الأسلمى لإقامة الحد عليه : « **لو سترته بردائك كان خيراً لك** » .

بل ويشرع للمسلم أن يستر على نفسه ، لما رواه الإمام مالك فى الموطأ ، عن زيد ابن أسلم أن رسول الله ﷺ قال : « **يأيها الناس قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله ، من أصاب شيئاً من هذه القاذورات ، فليستتر بستر الله ، فإن من يبدلنا صفحته ، نقم عليه كتاب الله** » ، وقد أرجع النبى ﷺ الغامدية مرة بعد أخرى حتى تضع وترضع وتفطم ، وقال لماعز الأسلمى : « **لعلك غمزت أو قبلت أو لامست** » . ويتأكد الستر على النفس ، وخصوصاً فى مثل هذه الأوضاع المنحرفة التى لا تطبق الحدود الشرعية ، والتى أصبح السجن فيها هو صلب العقوبات الوضعية ، ولا يمكن أن يكون السجن بديلاً عن قطع يد السارق أو جلد الزانى البكر ، أو القصاص من القاتل مثلاً ، ثم الآثار السيئة المترتبة على دخول السجون بهذا النحو ، وفى مثل هذه الحالات أمر لا يخفى على أحد فقد أصبحت مباءة لتخريج عتاة المجرمين . هذا بالإضافة إلى الخيالية الموجودة فى العقوبات الوضعية ، كالسجن مائة وعشرين سنة ، والسجن خمس سنوات لمن قبل امرأة أجنبية إلى غير ذلك من صور الخلل الموجودة فى تبشريعات البشر ، وقد كره الإمام أحمد رفع من استوجب حداً للحاكم لما أساءوا تطبيق الحدود .

فما الذى نقوله نحن في تطبيق هذه الأوضاع . هذا بالإضافة لكثرة الشبهات وانحراف الأوضاع عن شرع الله ، مما يسر لمرضى القلوب ، وضعاف النفوس

مواقعة المعاصى . وقد روت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله ، فإن الإمام لأن يخطىء فى العفو ، خير له من أن يخطىء فى العقوبة » (رواه الترمذى) . وذكر أنه قد روى موقوفاً وأن الوقف أصح قال : وقد روى عن غير واحد من الصحابة رضى الله عنهم أنهم قالوا مثل ذلك .

فعلى العبد إذا اقترف جرماً ، أن يتوب إلى الله تعالى توبة نصوحاً لقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين ءامنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنت تجرى من تحتها الأنهر ﴾[1] .

والنصح فى التوبة يقتضى أن يستغفر الإنسان باللسان ، ويندم بالقلب ، ويمسك بالبدن عن المعاصى ، وأن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على أن لا يعود فيه ، وعليه أن يتباعد عن قرناء السوء والأسباب التى تدعوه لمواقعة الفواحش ، كما أن عليه أن يستحضر رهبة الله وانتقامه ممن يعصيه ، وأنه سبحانه يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

وهو القادر على أن يعاجل الجانى بالعقوبة حال ارتكاب المعصية ، وأن يفضحه على رؤوس الخلائق .

فاتق الله حيثما كنت وأكثر من ذكر الموت والقبور والآخرة :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها	فهـــــو التقـــــى
واصنع كماشى فوق أرض الشوك	يحـــــذر ما يـــــرى
ولا تحقرن صغيرة فإن الجبال	من الحصـــــى

وردد على سمعك دائماً ، أن الله عز وجل أحق أن يطاع فلا يعصى فأكثر من الحسنات الماحية ﴿ واتبع السيئة الحسنة تمحها ﴾ . وتذكر أن تأخير التوبة ذنب يجب

---

(١) سورة التحريم الآية ٨ .

التوبة منه ، فعليك برد الحقوق لأصحابها ، وأحدث لكل ذنب توبة فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها ، تاب الله عليه** » (رواه مسلم) ، وعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « **إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر** » (رواه أحمد والترمذى) وحسنه وابن حبان والحاكم .

فبادر بالتوبة قبل حلول النعمة ، عساها ترد ما قد يرد :

﴿ ومن تاب وعمل صالحاً ، فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾[٢] .

---

(٢) سورة الفرقان الآية ٧١ ـ

بعض آثار المعاصي

(١) **حرمان العلم النافع** : ومن ذلك ما قاله الشافعي رحمه الله :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال : اعلم بأن العلم فضل ... وفضل الله لا يؤتاه عاص

(٢) **وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين ربه وبينه وبين الناس** : قال بعض السلف : إني لأعصي الله فأرى ذلك في خلق دابتي وخادمي وامرأتي .

(٣) **ظلمة يجدها في قلبه** : فالطاعة نور ، وقد وصف الله تعالى الإيمان في قلب عبده المؤمن بقوله نور على نور ، والمعصية بضد ذلك . بل قد تكثر المعاصي حتى تصبح كالرين على القلب : **﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾** ، فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشر من هواه بل قد يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف وبالجملة فالمعاصي تفسد العقول .

(٤) **المعاصي توهن القلب والبدن** : فتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها ، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم **﴿ المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ﴾** .

(٥) **حرمان الطاعة وزرع المعاصي** : وذلك لقوله تعالى : **﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ﴾** .

وكما قال بعض السلف : إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها ، وإن من ثواب الحسنة : الحسنة بعدها وقد تقوى إرادة المعصية في القلب ، بحيث تضعف إرادة التوبة في القلب شيئاً فشيئاً ، بل ولا يزال يرتكب الذنوب حتى تهون عليه ، وتصغر في قلبه وهذه هي الهلكة .

(٦) **إن المعاصي تقصر العمر وتمحق البركة** : فلا تتصور حياة حقيقية إلا في

طاعة الله تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾ .

وبالجملة فطاعة الله هى سبب كل خير وسعادة فى الدنيا والآخرة والمعصية بضد ذلك .

(٧) **بل قد يفتخر أحدهم بالمعصية** : وذلك عندما تصير المعصية له عادة وينسلخ من القلب استقباحها وهذا عند أرباب الفسوق وهو غاية التفكر وتمام اللذة فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه .

(٨) **كل معصية هى من ميراث المعذبين المهلكين** : كاللواط والعلو فى الأرض ، والفساد ، والتكبر ، والتجبر . كان مالك بن دينار يقول : « **أوحى الله إلى نبى من الأنبياء بنى إسرائيل ، أن قل لقومك : لا تدخلوا مداخل أعدائى ، ولا تلبسوا ملابس أعدائى ، ولا تركبوا مراكب أعدائى ، ولا تطعموا مطاعم أعدائى ، فتكونوا أعدائى ، كما هم أعدائى** » .

(٩) **المعصية سبب لهوان العبد على ربه** : ولذلك قال الحسن : هانوا عليه فعصوه ، ولو عزوا عليه لعصمهم ، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد ، كما قال الله تعالى : ﴿ **ومن يهن الله فما له من مكرم** ﴾ ، وإن عظمهم الناس فى الظاهر لحاجتهم إليهم أو خوفا من شرهم فهم فى قلوبهم أحقر شىء وأهونه .

(١٠) **ما نزل بلاء إلا بذنب ، وما رفع إلا بتوبة** : وفى الحديث : « **ما ظهرت الفاحشة فى قوم حتى أعلنوا بها ، إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، الذين مضوا ، ولا منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولا نقص قوم المكيال إلا إبتلوا بالسنين ، وشدة المؤونة ، وجور السلطان ، وما لم ينفذوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً ، فأخذ بعض ما فى أيديهم ، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم شديد** » .

وكل هذا من شؤم الذنوب والمعاصى فهى لا تقتصر على فاعلها قال تعالى :

﴿ وإذا أردنا أن نُهلكَ قَريةً أمرنا مُترفِيها فَفَسقُوا فيها فحقَّ عليها القَولُ فدمرنَها تدميراً ﴾(١) .

(١١) **المعصية تورث الذل** : قال تعالى :

﴿ من كَانَ يُرِيدُ العزة فللهِ العزة جمِيعاً ﴾(٢) .

وكان البعض يدعوا ويقول : « اللهم أعزنى بطاعتك ولا تذلنى بمعصيتك » .

(١٢) **المعاصى تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ** : كما فى الحديث : « **لعن فى الخمر عشرة ، لعن الله النامصات ، والمتنمصات ، والواشمات والمستوشمات ... الحديث** » ، بل قل تصل مضرة المعاصى إلى الحرمان من دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة .

(١٣) **خروج الغيرة من قلب العبد** : حتى لا يستقبح القبيح لا من نفسه ولا من غيره . ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله والجنة عليه حرام ، وهو الذى يقر الخبث فى أهله ، فلا غيره عنده إذا انتهكت محارم الله .

(١٤) **ذهاب الحياء** : الذى هو مادة الحياة للقلب ، وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « **الحياء خير كله** » ، وقال : « **إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت** » .

(١٥) **المعصية تضعف فى القلب تعظيم الرب تعالى والجزاء من جنس العمل** : فتكون النتيجة أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق فيهون عليهم ويستخفون به ، ويضيع وسطهم ، لتفريطه فى أمر ربه ، ولذلك قال الحسن : « فإنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين فإن ذل المعصية لا يفارق رقابهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه » .

(١٦) **ومن عقوبتها** : أنها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه ،

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٦ .

(٢) سورة فاطر الآية ١٠ .

وشيطانه ، وهذا هو الهلاك الذى لا يرجى معه نجاة . قال تعالى : ﴿ ولا تكُونوا كالذِّين نَسوا الله فأنسَٰهم أنفَسهم أولئِك هُم الفٰسِقُونَ ﴾(٣) .

فمن ترك تقواه عاقبه بأن أنساه نفسه ، أى أنساه مصالحها وما ينجيه من عذابه .

(١٧) **ومن عقوباتها :** سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله ، وعند خلقه فتسلب صاحبها أسماء المدح والشرف ، وتكسوه أسماء الذم والصغار فيسمى بالفاجر ، والزانى ، والسارق ، والكاذب ، والخائن ، والغادر ، وقاطع الرحم ، وكل ذلك بسبب المعصية ، ولذلك قال تعالى :

﴿ بئسَ الاسمُ الفُسوقُ بَعَدَ الإيمٰنِ ﴾(٤) .

وبمقتضى ذلك يجعل صاحبها من السفلة ، بعد أن كان مهيأ لأن يكون من العلية ، وقد جعل الله أهل طاعته الأعلين فى الدنيا والآخرة ، وأهل معصيته الأسفلين فى الدنيا والآخرة .

(١٨) **العاصى دائماً فى أسر شيطانه ، وسجن شهواته ، وقيود هواه :** ولذلك قال تعالى على لسان إبراهيم : ﴿ **يأبت لا تعبد الشيطان** ﴾ .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : « فى سجنه المأسور من أسره هواه ، والمحبوس من حبس قلبه عن ربه » فالمعصية تجرىء على العبد ما لم يكن يجترىء عليه فتجرىء عليه الشياطين وتجرىء عليه أهله ، وخدمه ، وأولاده ، وجيرانه حتى الحيوان البهيم .

(١٩) **المعصية تعمى بصر القلب ، وتطمس نوره ، وتسد طرق العلم ، وتحجب مواد الهداية :** فتأثير الذنوب فى القلوب كتأثير الأمراض فى الأبدان ، فتضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة .

والذنب إما أن يميت القلب ، أو يمرضه مرضاً مخوفاً ، أو يضعف

(٣) سورة الحشر الآية ١٩ .

(٤) سورة الحجرات الآية ١١ .

قوته ، ولابد حتى ينتهى ضعفه إلى الأشياء الثمانية التى أستعاذ النبى ﷺ منها وهى : « الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال » .

(٢٠) المعصية تصغر النفس وتدسيها وتحقرها : قال تعالى :

﴿ قد أفلح من زكّٰها * وقد خابَ من دسَّٰها ﴾[٥] .

كما أنها تزيل النعم وتحل النقم ، قال تعالى :

﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾

وبالإضافة للوحشة العظيمة التى يجدها المذنب فى قلبه فهو يعانى دائماً من الرعب والخوف والمطيع بضد ذلك . قال تعالى :

﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

(٢١) ومن عقوبات المعصية : أنها تخرج العبد من دائرة الإحسان ، وتمنعه من ثواب المحسنين . فاعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فاعلم وتيقن أنه يراك ، ولست تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ، ولا من ملكه إلى ملك غيره .

ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى

قال تعالى : ﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴾ ، فهو سبحانه يهدى عباده من الضلال ، ويطعمهم من جوع ، ويكسوهم من عرى ، ويغفر لهم ذنوبهم ، وزلاتهم . فعل ذلك سبحانه لعباده مع كمال غناه عنهم ، وهم لا يقدرون أن يوصلوا إلى الله نفعاً ، ولا ضراً ، فإنه سبحانه فى نفسه غنى حميد لا حاجة له بطاعات العباد ، ولا يعود نفعها إليه ، وإنما هم ينتفعون بها ، ولا يتضرر بمعاصيهم ، وإنما هم يتضررون بها . قال الله تعالى : ﴿ ولا

---

(٥) سورة الشمس الآية ١٠ .

يحزنك الذين يَسرعُون فى الكُفرِ إنهُم لن يضرُّوا الله شيئاً ﴾[٦] . وقال :
﴿ ومن يَنقلب على عقِّبيه فلن يَضُرَّ الله شيئاً ﴾[٧] .

وكان النبى ﷺ يقول فى خطبته : « ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ولا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً » .

وقال سبحانه :

﴿وإن تكفُروا فإن لله ما فى السَّمٰواتِ ومَا فى الأرضِ ، وكان الله غنياً حميداً ﴾[٨] .

وقال حاكيا عن موسى :

﴿ وقال مُوسى إن تكفُروا أنتُم ومَن فِى الأرضِ جَميعاً فإن الله لغنىّ حَميدٌ ﴾[٩] .

وقال :

﴿ ومن كَفر فإن الله غنىٌّ عن العٰلمينَ ﴾[١٠]

وقال :

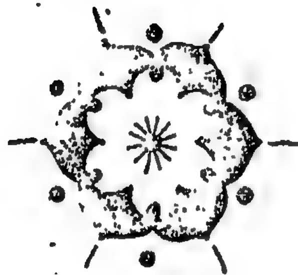
﴿ لن ينالَ اللهَ لحُومُها ولا دِمَاؤُهَا ولٰكِن ينالُهُ التقوىٰ منكُم ﴾[١١] .

والمعنى أنه تعالى يحب من عباده أن يتقوه ، ويطيعوه ، كما أنه يكره منهم أن يعصوه ، هذا كله مع غناه عن طاعات عباده ، وتوبتهم إليه ، وإنه إنما يعود نفعها إليهم دونه ، ولكن هذا من كمال جوده وإحسانه إلى عباده ، ومحبته لنفعهم ، ودفع الضر عنهم ، فهو سبحانه يحب من عباده ، أن يعرفوه ويحبوه ويتقربوا إليه ؛

---

(٦) سورة آل عمران الآية ١٧٦ .
(٧) سورة آل عمران الآية ١٤٤ .
(٨) سورة النساء الآية ١٣١ .
(٩) سورة إبراهيم الآية ٨ .
(١٠) سورة آل عمران الآية ٩٧ .
(١١) سورة الحج الآية ٣٧ .

ويجب أن يعلموا أنه لا يغفر الذنوب غيره ، وأنه قادر على مغفرة ذنوب عباده . قال صاحب الطحاوية ذلك بأنه على كل شيء قدير ، وكل شيء إليه فقير ، وكل أمر عليه يسير لا يحتاج إلى شيء ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ .



هــل فـى النصـوص الشـرعية تكـرار

فكما هو واضح من خلال شرح الحديث ، نجد أن المعنى الواحد يرد ويتواجد فى عدة نصوص شرعية كالحث على الإستغفار . هذا المعنى الذى تكرر فى عشرات النصوص كما رأينا سواء كانت كتاباً أم سنة ، إلا أنه فى كل نص من النصوص الشرعية نجد فائدة وإضافة ومناسبة . بحيث يفترق بها هذا النص عن ذاك ، ومن الأمثلة الواضحة على ما نقول ما ورد بشأن القصص القرآنى ، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها فى القرآن وتعرض فى صور مختلفة فى التقديم ، والتأخير ، والإيجاز ، والإطناب ، وما شابه ذلك ، وهذا الأمر له حكم كثيرة منها : أن التكرار من طرق التأكيد ، وأمارات الإهتمام كما هو الحال فى قصة نوح التى تكررت أكثر من عشرين مرة ، وقصة موسى مع فرعون لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل ، هذا مع أن القصة لا تكرر فى السورة الواحدة ، مهما كثر تكرارها ، وأحياناً ترد المعانى وافية بالغرض فى مقام ، وتبرز معانٍ أخرى فى سائر المقامات حسب إختلاف مقتضيات الأحوال ، كما أن إيراد المعنى الواحد فى صور متعددة ، مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها ، أبلغ فى التحدى والإعجاز ، هذا بالإضافة إلى أن القصة المتكررة ترد فى كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر ، وتصاغ فى قالب غير القالب ، ولا يمل الإنسان من تكرارها ، بل تتجدد فى نفسه معانٍ لا تحصل له بقراءتها ، فى المواضع الأخرى . ومعلوم أن نصوص الوحى قد خرجت من مشكاة واحدة ، فالقرآن لفظاً ومعنى من الله تعالى ، والسنة وحى أيضاً والنبى ﷺ : ﴿ **ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى** ﴾ .

إلا أن المعنى من عند الله واللفظ لرسول الله ﷺ ، وقد أوتى صلوات الله وسلامه عليه جوامع الكلم وفواتحه وخواتمه ، فلا يصح ضرب النصوص بعضها ببعض ولا يجوز لنا أن نخوض فى الله ، ولا أن نمارى فى دين الله بغير علم ، والسنة كما رأينا لها شأن كبير مع القرآن ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر**

لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ .

ومعلوم أن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله ، بل قال العلماء : « السنة تقضى على الكتاب ، والواجب علينا أن نجمع بين النصوص الشرعية ، ولا يصار إلى النسخ ، وإبطال الحكم الوارد فى النص ، إلا مع عدم إمكان الجمع » ، وتحت باب « **ما يعد مختلفاً وليس عندنا بمختلف** » قال الإمام الشافعى رحمه الله لمن حاوره لأن أصل ما نبنى عليه نحن وأنتم عليه أن الأحاديث إذا اختلفت لم نذهب إلى واحد منها ، دون غيره ، إلا بسبب يدل على أن الذى ذهبنا إليه ، أقوى من الذى تركنا قال : وما ذلك السبب ؟ قلت : أن يكون أحد الحديثين أشبه بكتاب الله فإذا أشبه كتاب الله كانت فيه الحجة . قال : هكذا نقول . قلت : فإن لم يكن فيه نص فى كتاب الله ، كان أولاهما بنا الأثبت منهما ، وذلك أن يكون من رواه أعرف إسناداً ، وأشهر بالعلم ، والحفظ له من الإملاء ، أو يكون روى الحديث الذى ذهبنا إليه من وجهين ، أو أكثر والذى تركنا من وجه ، فيكون الأكثر ، أولى بالحفظ من الأقل ، أو يكون الذى ذهبنا إليه أشبه بمعنى كتاب الله ، أو أشبه بما سواهما من سنة رسول الله ﷺ ؛ وأولى بما يعرف أهل العلم ، وأوضح فى القياس ، والذى عليه الأكثر من أصحاب رسول الله ﷺ أ . هـ .

فالحمد لله الذى أكمل لنا الدين ، وأتم علينا النعمة ، وجازى الله نبينا خير ما جازى نبياً عن أمته ، فما انتقل إلى الرفيق الأعلى حتى بين لنا من كل شىء علماً ، وحتى تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً * ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً

وفى هذا إشارة إلى أن ملكه لا يزيد بطاعة الخلق ، ولو كانوا كلهم بررة ، أتقياء ، قلوبهم على قلب أتقى رجل منهم ، ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين ،

ولو كان الجن والإنس كلهم عصاة ، فجرة ، قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم ، فإنه سبحانه الغنى بذاته عمن سواه ، وله الكمال المطلق فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، فملكه ملك كامل ، لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أى وجه كان ، وقد اقتضت حكمته سبحانه ، أن يكون من عباده المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والمطيع والعاصى ، وهؤلاء جميعاً يتقلبون بين فضله وعدله ، سبحانه ، إذ أنه حرم الظلم على نفسه « وما فى الكون من الشر ، فهو شر إضافى ، نسبى ، بالنسبة إلى بعض الأشياء ، دون بعض ، وليس شراً مطلقاً ، بحيث يكون عدمه خيراً من وجوده من كل وجه ، بل وجوده خير من عدمه » وهذا معنى قوله : ﴿ **بيده الخير** ﴾ .

ومعنى قول النبى ﷺ : « **والشر ليس إليك** » ، يعنى أن الشر المحض الذى عدمه خير من وجوده ، ليس موجوداً فى ملكك ، فإن الله تعالى أوجد خلقه على ما تقتضيه حكمته ، وعدله وخص قوماً من خلقه بالفضل وترك أخرين منهم فى العدل ، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة ﴿ **ولا يُسئَلُ عمَّا يفعل وهم يُسئَلُون** ﴾ .

فملكه سبحانه كامل على أى وجه كان ، لا يزاد ، ولا يكمل بالطاعة ، ولا ينقص بالمعاصى ، ولا يؤثر فيه شيئاً . وفى الحديث دليل على أن الأصل فى التقوى والفجور ، هى القلوب ، فقد أضيف كلاهما إلى القلب ، فإذا بر القلب واتقى ، برت الجوارح ، وإذا فجر القلب ، فجرت الجوارح ، كما قال النبى ﷺ : « **التقوى ههنا وأشار إلى صدره** » . والقلب بمثابة الملك المؤمر ﴿ **إن السمعَ والبصرَ والفؤادَ كُلُّ أولئِكَ كان عنهُ مسئولاً** ﴾ .

وقال النبى ﷺ : « **ألا وإن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت ، صلح الجسد كله ، وإذا فسدت ، فسد الجسد كله** » (رواه البخارى ومسلم) ، ومن هنا كان الإهتمام بتصحيح القلب وتسديده ، والنظر فى أمراضه وعلاجها ، من الواجبات التى ينبغى على العباد أن يلتفتوا إليها ويحرصوا عليها ، والعبادات كما هو معلوم ، موزعة على القلب ، والجوارح ، وواجبات القلوب أعظم من واجبات الأبدان .

وقلوب العباد متفاوتة تفاوتاً عظيماً ، فعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : « **القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أغلف ، فذلك قلب الكافر ، وقلب منكوس ، فذلك قلب المنافق ، عرف ثم أنكر ، وأبصر ثم عمى ، وقلب تمده مادتان : مادة إيمان ، ومادة نفاق ، وهو للغالب عليه منهما** » (رواه مسلم) ، ولا ينجو يوم القيامة ، إلا من أتى الله بقلب سليم ، لقوله تعالى : ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ .

والفتن التى تعرض على القلوب ، قد تسبب مرضها ، بل موتها أيضاً ، فعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكت سوداء ، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكت بيضاء ، حتى تعود القلوب على قلبين : قلب أسود مربادا كالكوز مجخياً ، لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً ، إلا ما أشرب من هواه ، وقلب أبيض لا تضره فتنة ، مادامت السموات والأرض** » (رواه مسلم) .

وقد وصف الله تعالى المنافقين بمرض القلب الذى ترامى إلى العطب ، فقال : ﴿ **فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً** ﴾ ، والأمراض التى تصيب القلوب ، هى أمراض الشهوات والشبهات ، فإذا استحكمت ، استقر الشيطان فى قلب العبد .

وفى الحديث : « **فى القلب لمتان : لمة من الملك ، إيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك ، فليعلم أنه من الله سبحانه ، وليحمد الله . ولمة من العدو ، إيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، ونهى عن الخير ، فمن وجد ذلك ، فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم** » (رواه الترمذى وحسنه) .

ولا أنفع للقلب من الإيمان ، والعمل الصالح ، قال تعالى :
﴿ **ولننزل من القرءان ما هو شفاء ورحمة** ﴾[1] .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٢ .

وكلما سلم القلب ، أحب ما يحبه الله عز وجل ، وما يحبه رسوله ﷺ .

قال تعالى :

﴿ ولٰكن الله حبَّبَ إليكُمُ الإيمٰنَ وزينهُ فى قلوبكُم ، وكرَّهَ إليكم الكفرَ والفسوقَ والعِصيان * أولٰئِكَ هم الراشدونَ ﴾[٢] .

ولا أضر على القلب من المعاصى والذنوب ولذلك قال ابن المبارك :

رأيت الذنوب تميت القلوب	وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب	وخير لنفسك عصيانها

وقد تجمع الذنوب على القلوب حتى يصير عليها مثل الرين **﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾** . قال بعض السلف : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب ، وقد يحدث ذلك دون أن يشعر الإنسان ، ولذلك قالوا : وما لجرح بميت إيلام .

وروى عن ابن عباس أنه قال : « **إن للحسنة نوراً فى الوجه ، وضياء فى القلب ، وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الخلق ، وإن للمعصية سواداً فى الوجه ، وظلاماً فى القلب ، وضيقاً فى الرزق ، وبغضة فى قلوب الخلق** » .

ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر

فالمراد بهذا ذكر كمال قدرته سبحانه وكمال ملكه ، وأن ملكه وخزائنه لا تنفذ بالعطاء ، ولو أعطى الأولين والآخرين من الجن والإنس جميع ما سألوه فى مقام واحد ، وذلك من حاجاتهم الدينية ، والدنيوية ، فمصالح الدين تعود إلى التحقق بمعانى الهداية ، ومغفرة الذنوب ، ومصالح الدنيا تتم بتوافر المطعم ، والمشرب ، والملبس ،

---

(٢) سورة الحجرات الآية ٧ .

والمسكن ، وهذه المعانى لا يقدر على تحقيقها إلا الله ، فمن عظيم رحمته سبحانه ، ورأفته بخلقه ، أن حثهم على سؤاله وإنزال حوائجهم به .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « **يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار ، أفرأيتم ما أنفق ربكم منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغض ما فى يمينه** » .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « **إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم إغفر لى إن شئت ، ولكن ليعزم المسألة ، وليعظم الرغبة ، فإن الله لا يتعاظمه شىء** » .

نعم الخلق عددهم كثير من الجن والإنس ، وكلهم له إحتياجاته الكثيرة ، ولكن من الذى ينيل الطلبات ، ويجيب الحاجات ، إلا الله ، فالخلق خلقه ، والعبد عبده ، ولا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه ، ﴿ **وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ .

ولا يصح قياس الخالق على المخلوق فالمخلوق يتبرم بإلحاح الملحين ، وهو فقير بالذات ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، ولذلك قالوا :

لا تسـل بنـى آدم حاجـــة ... وسـل الذى أبوابـه لا تغلـقُ

فبنـى آدم يغضـب إن سـألتـه ... والله يغضب إن تركـت سـؤاله

وكان أبو سعيد الخدرى يقول : « إذا دعوتم الله فأرفعوا فى المسألة ، فإن ما عنده لا ينفذه شىء ، وإذا دعوتم فاعزوا ، فإن الله لا مستكره له » . وفى بعض الإسرائيليات يقول الله عز وجل : ﴿ **أيؤمل غيرى للشدائد ، والشدائد بيدى ، وأنا الحى القيوم ، ويرجى غيرى ويطرق بابه بالبكرات ، وبيدى مفاتيح الخزائن ، وبابى مفتوح لمن دعانى ، من ذا الذى أملنى لنائبة فقطعت به ؟ أنا غاية الآمال ، فكيف تنقطع الآمال دونى ؟ أبخيل أنا فيبخلنى عبدى ؟ أليس الدنيا والآخرة والكرم والفضل كله لى ؟ فما يمنع المؤملين أن يؤملونى ؟ لو جمعت أهل السموات والأرض ، ثم أعطيت كل واحد منهم ما أعطيت الجميع ، وبلغت كل واحد منهم**

أمله ، لم ينقص ذلك من ملكى عضو ذرة ، كيف ينقص ملك أنا قيمه ؟ فيا بؤساً للقانطين من رحمتى ، ويا بؤساً لمن عصانى ، وتوثب على محارمى ﴾ .

« فاللهم إنى أسألك بعزك وذلى إلا رحمتنى ، وأسألك بقوتك وضعفى وبغنائك وفقرى إليك ، هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدُك سواى كثير ، وليس لى سيد سواك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، أسألك مَسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت لك رقبته ، ورغم أنفه ، وفاضت لك عينه وذل لك قلبه » .

وقوله : **﴿ لم ينقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ﴾** ، فما عنده سبحانه لا ينقص أبداً ، كما قال تعالى : **﴿ مَا عِندكُم ينفدُ ومَا عِندَ الله بَاقٍ ﴾**(١٠) ، فإن البحر إذا غمس فيه إبرة ، ثم خرجت لم تنقص من البحر ، بذلك شيئاً ، وكذلك لو فرض أنه شرب منه عصفور مثلاً ، فإنه لا ينقص البحر البتة ، ولهذا ضرب الخضر لموسى عليهما السلام ، هذا المثل فى نسبة علمهما إلى علم الله عز وجل ، وهذا لأن البحر لا يزال تمده مياه الدنيا ، وأنهارها الجارية ، فمهما أخذ منه لم ينقصه شىء ، لأنه يمده ما هو أزيد مما أخذ منه . وقال تعالى : **﴿ولو أنّمَا فِى الأرضِ من شَجَرةٍ أقْلَمٌ والبَحرُ يَمُدُّوهُ من بعده سبعَةُ أبحرٍ ما نفِدَت كَلِمٰتُ الله ﴾**(١١) .

وقال سبحانه :

﴿ قل لو كانَ البحرُ مِداداً لكلَمٰت ربى لنفِدَ البحرُ قبلَ أن تنفَدَ كلِماتُ ربى ولو جئِنَا بِمِثلِهِ مَدَدًا ﴾(١٢) .

وهكذا طعام الجنة وما فيها فإنه لا ينقص كما قال تعالى :

﴿ وَفٰكِهةٍ كثيرةٍ لا مقطوعةٍ ولا ممنوعة ﴾(١٣) .

وقد جاء كلما نزعت ثمرة عاد مكانها مثلها ويشهد لذلك قول النبى ﷺ فى

(١٠) سورة النحل الآية ٩٦ .
(١١) سورة لقمان الآية ٢٧ .
(١٢) سورة الكهف الآية ١٠٩ .
(١٣) سورة الواقعة الآية ٣٢ ــ ٣٣ .

خطبة الكسوف : « **وأريت الجنة فتناولت منها عنقوداً ، ولو أخذته لأكلتم منه مابقيت الدنيا** » أخرجاه فى الصحيحين من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، وأخرجه الإمام أحمد من حديث جابر ولفظه : « **لو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض ، لا ينقصونه شيئاً** » .

وهكذا لحم الطير الذى يأكله أهل الجنة يستخلف ويعود كما كان ، حياً لا ينقص منه شيء ، كما قال كعب وأبو أمامة . قال أبو أمامة : « وكذلك الشراب يشرب منه ، حتى تنتهى نفسه ، ثم يعود مكانه » ، وقد ورد سبب ذلك كما فى بعض روايات الحديث بقوله : ﴿ **ذلك بأنى جواد واجد ما جد ، أفعل ما أريد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردت إنما أقول له كن فيكون** ﴾ ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ **إنَّما قولنا لشىء إذا أردنٰه أن نقُولَ له كُن فيكُونُ** ﴾[١٤] .

فهو سبحانه إذا أراد شيئا من عطاء أو عذاب ، أو غير ذلك قال له كن فيكون ، فكيف يتصور أن ينقص هذا ؟ وكذلك إذا أراد أن يخلق شيئاً قال له كن فيكون ، كما قال :

﴿ **إن مثل عيسىٰ عندَ الله كمثلِ آدمَ خلَقَهُ من تُرابٍ ثمَّ قالَ له كُن فَيكُونُ** ﴾[١٥] .

وهذا من أبلغ الردود على النصارى الذين قالوا : « إن الله ثالث ثلاثة » ، وقالوا عن عيسى : هو ابن الله تعالى الله عما يقول الكافرون والجاحدون علواً كبيراً فمعلوم أن خلق آدم أبلغ من خلق عيسى وربنا قادر على كل شىء لا يعجزه شىء .

---

(١٤) سورة النحل الآية ٤٠ .

(١٥) سورة آل عمران الآية ٥٩ .

ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها

فلا ظلم بين العباد فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، فقد خلق سبحانه الخلق لعبادته ، وكفل لهم أرزاقهم ، ولم يكتف سبحانه بأن ركب فى العباد عقولاً ، وأودع فيهم فطراً بل أنزل لهم الكتب ، وأرسل لهم الرسل ، وهداهم صراطاً مستقيماً ، ديناً قيماً لا عوج فيه ، وأمرهم بالدعاء ، ووعدهم بالإجابة ، فلن يهلك مع الله إلا هالك ، واليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل ، فالمؤمن داره هى الجنة بإذن الله ، ولذلك فهو يعمل هنا ، ونظره فى السماء ، وحساباته حسابات أخروية ، ويعلم أنه مأخوذ عليه فى سمعه ، وبصره ، وسائر جوارحه ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ ، وأن الله تعالى يحصى عليه أعماله ، ثم يوفيه إياها بالجزاء عليها ﴿ **فَمن يَعمل مِثقَالَ ذرةٍ خيراً يَره ، وَمَن يَعمل مثقالَ ذرةٍ شراً يَره** ﴾(٣) .

قال تعالى :

﴿ **وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يظلمُ ربُكَ أحداً** ﴾

وقال سبحانه :

﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه** ﴾(٤) .

وقال جل وعلا :

﴿ **يومَ يَبعَثُهم الله جَميعاً فيُنبئهُم بما عَملوا أحَصٰهُ الله ونَسُوهُ** ﴾(٥) .

قال تعالى :

﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها** ﴾ .

فأعمالكم عمالكم ، والجزاء من جنس العمل ، واعمل ما شئت كما تدين تدان ، والميزان يوم القيامة بالحق والقسط ، قال تعالى :

---

(٣) سورة الزلزلة الآية ٧ — ٨ .

(٤) سورة آل عمران الآية ٢٠ .

(٥) سورة المجادلة الآية ٦ .

﴿ ونَضَعُ الموازينَ القِسطَ ليومِ القيامة * فَلا تُظلم نَفسٌ شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردلٍ أتينَا بها * وكفى بنا حاسبين ﴾[٦] .

وقال تعالى :

﴿ والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾[٧] .

وفى حديث البطاقة عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ، أظلمك كتبتى الحافظون ؟ قال : لا يارب . قال : أفلك عذر أو حسنة ؟ قال : فيهاب الرجل فيقول : لا يارب . فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة واحدة ، لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله (ﷺ) فيقول : أحضروه . فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات . فيقول : إنك لا تظلم . قال : فتوضع السجلات فى كفة ، والبطاقة فى كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ولا يثقل شىء مع بسم الله الرحمن الرحيم** » (رواه الترمذى) وحسنه والحاكم ، وقال صحيح الإسناد على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى .

وعن أنس رضى الله عنه قال : كنا عند النبى ﷺ فضحك فقال : « **أتدرون مما أضحك ؟ فقلنا : الله ورسوله أعلم . فقال : من مخاصمة العبد ربه ، فيقول : يارب ألم تجرنى من الظلم ، قال : فيقول : بلى . فيقول : فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهداً منى ، قال فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، قال فيختم على فيه فيقال لأركانه : انطقى ، فتنطق**

(٦) سورة الأنبياء الآية ٤٧ .

(٧) سورة الأعراف الآية ٨ ــ ٩ .

بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول يعنى لأعضائه بعداً وسحقاً ، لكن فعنكن كنت أجادل » (رواه مسلم) .

ومصداق ذلك أيضاً فى كتاب الله : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾[٨] .
﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ، ولا أبصاركم ، ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾[٩]

وعن أبى برزة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة ، حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وماذا عمل فيما علم » (رواه الترمذى وصححه الألبانى)
« اللهم إنك تسمع كلامى ، وترى مكانى ، وتعلم سرى وعلانيتى ، ولا يخفى عليك شىء من أمرى ، وأنا البائس الفقير ، والمستغيث المستجير ، والوجل المشفق ، المقر المعترف إليك بذنبه . اللهم أعطنى من الدنيا ما تقينى به فتنتها ، وتغنينى به عن أهلها ، ويكون بلاغاً إلى ما هو خير منها ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك . اللهم وفر حظى ، من خير تنزله ، أو إحسان تفضله ، أو بر تنشره ، أو رزق تبسطه ، أو ذنب تغفره ، أو خطأ تستره . ياإلهى ، يامن بيده ناصيتى ، ياعليم بضرى ومسكنتى ، ياخبير بفقرى وفاقتى ، يارب أسألك بحقك ، وقدسك ، وأعظم صفاتك ، وأسمائك أن تجعل أوقاتى بالليل والنهار بذكرك معمورة ، وبخدمتك موصولة ، وأعمالى عندك مقبولة ، يامن عليه معولى ، يامن إليه شكوت أحوالى ، قو على خدمتك جوارحى ، وأشدد على العزيمة جوانحى ، وهب لى الجد فى خشيتك ، والدوام على الإتصال فى خدمتك ، حتى أخافك مخافة الموقنين ، وأجمع فى جوارك مع المؤمنين ، اللهم فارج الهم ، وكاشف الغم ، مجيب دعوة المضطرين ، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما ، إرحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك . اللهم إلى ضعيف

---

(٨) سورة يس الآية ٦٥ .

(٩) سورة فصلت الآية ٢٢ ـ ٢٣

فقونى ، وإنى ذليل فأعزنى ، وإنى فقير فأغننى . اللهم وما قصر عنه رأيى ، وضعف عنه عملى وعلمى ، ولم تبلغه مسألتى ، من خير وعدته أحداً من خلقك ، أو خير أنت معطيه أحداً من عبادك ، فإنى أرغب إليك فيه ، وأسألك إياه برحمتك . يارب العالمين » .

وعن أبى هريرة رضى الله رعنه أن رسول الله ﷺ قال : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » (رواه مسلم) .

وقوله « ثم أوفيكم إياها » الظاهر أن المراد توفيتها يوم القيامة ، فهو يوم الجزاء والحساب ، والفصل ، كما في قوله تعالى : ﴿ وإنما توفونَ أجورَكم يومَ القيٰمة ﴾[16] ، ويحتمل أن المراد يوفى عباده جزاء أعمالهم فى الدنيا والآخرة كما فى قوله تعالى : ﴿ مَن يَعمَل سُوءاً يُجز به ﴾[17] فالكافر يطعم بحسناته فى الدنيا ، والمؤمن يطعم بها فى الدنيا والآخرة ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه لرسول الله ﷺ : « أدع الله فليوسع على أمتك ، فإن فارساً والروم قد وسع عليهم وأعطوا من الدنيا ، وهم لا يعبدون الله . فجلس النبى ﷺ وكان متكئاً ، فقال : أوفى ذلك أنت ياابن الخطاب ؟ إن أولئك قوم عجلوا طيباتهم فى الحياة الدنيا ، فقلت : يارسول الله استغفر لى » (رواه البخارى) ، وأخرج ابن مردوية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله لولا أن يجزع عبدى المؤمن لعصبَ الكافر عصابة من حديد فلا يشتكى شيئاً ولصبت عليه الدنيا صباً » ، وذلك كله لأن الدنيا لا تعدل جناح بعوضة عند الله والمسلم المؤمن يستحق ثواب الآخرة ، ومهما كان قد بلى بالمعاصى ، والسيئات ، لابد له من أن ينال ثواب الآخرة ويتمتع بنعيم الجنة ، بعد ما يجتاز مراحل العقوبة فى الدنيا ، ويقاس فيها المحن ، وذلك هو ما يبشر له بالخير فى الآخرة ، يقول النبى ﷺ :

---

(١٦) سورة آل عمران الآية ١٨٥ .
(١٧) سورة النساء الآية ١٢٣ .

« لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه ، وماله ، وولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة » (رواه الترمذى) ، وقال حديث حسن صحيح .

وفى الحديث : **« إذا أراد الله بعبده الخير ، عجل له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشر ، أمسك عنه بذنبه ، حتى يوافيه به يوم القيامة »** (رواه الترمذى) .

وعن عقبة بن عامر ، عن النبى ﷺ قال : **« إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو إستدراج »** ، ثم تلا رسول الله ﷺ : **﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾**(١٨) .

والعقوبة أخروية فى الأصل للكافر ، وهذا لا يمنع من نزول العذاب بساحتهم فى الدنيا ، بكثرة ظلمهم أو إسرافهم فى الفسق والفجور أو اعتدائهم على الأنبياء . أما الحسنات التى عملها ، فهو يثاب بها فى الدنيا كالصدقة ، وصلة الرحم ، فإذا قدم على ربه يوم القيامة فلا نصيب له إلا النار .

قال تعالى :

﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾ .

وسئل ابن عباس عن قوله تعالى :

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون ⁕ أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ .

فقال : إن الله تعالى يستوفى جزاء أعمالهم بصحة أبدانهم ، وإدخال السرور إلى أنفسهم بزيادة الأموال والأولاد ، قال تعالى : **﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ .**

---

(١٨) سورة الأنعام الآية ٤٤ .

وعن ميمون بن مهران قال : « من كان يريد أن يعلم ما منزله عند الله ، فلينظر فى عمله ، فإنه قادم على عمله ، كائنا ما كان ولا عمل مؤمن ولا كافر من عمل صالح إلا جزاه الله به ، فأما المؤمن فيجزيه فى الدنيا والآخرة بما شاء ، وأما الكافر فيجزيه فى الدنيا » .

وهذا يفسر لنا لماذا يعيش الكافر بالرغم من سوء أعماله فى بحبوحة من العيش والراحة ، ولماذا أيضاً تتنزل الإبتلاءات بهذه الأمة رغم إسلامها ، فالدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر ، والإبتلاء فى حق المؤمن رحمة ، وفى حق الكافر نقمة ، قال تعالى : ﴿ **أفنجعل المُسلمينَ كالمجرمينَ ما لَكُم كَيفَ تحكُمُونَ** ﴾[19] .

وثمرة الطاعة سعادة فى الدنيا والآخرة ، وثمرة المعصية نكد وضنك وشقاء فى الدنيا والآخرة أيضاً ، قال تعالى : ﴿ **فَمن اتبع هُداىَ فَلاَ يضلُّ ولا يشقى ومَن أعرض عَن ذكرى فإنَّ له معيشةً ضنكاً** ﴾[20] .

وقال تعالى :

﴿ **تِلكَ الدارُ الأخرةُ ، نَجعَلها للذينَ لا يُريدُونَ عُلُواً فى الأرضِ ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين** ﴾[21] .

فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه

وهذا القول هو ختام المسك ، والحمد لله رب العالمين ، فإن الله حرم الظلم على نفسه ، وجعله بينكم محرماً ، فلا تظالموا وهكذا ارتبطت بداية الحديث بنهايته ، وتسلسلت فقراته بكل تناسب حتى النهاية ، فهو سبحانه ﴿ **الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾ وهو جل فى علاه ﴿ **ينزل الغيث من بعد ما قنطوا**

---

(١٩) سورة القلم الآية ٣٦ .

(٢٠) سورة طه الآية ١٢٣ .

(٢١) سورة القصص الآية ٨٣ .

وينشر رحمته ﴾ وهو الذى تاب عليهم ليتوبوا وهو القائل : ﴿ وقال ربكم ادعونى استجب لكم ﴾ .

فله الحمد سبحانه على ذلك حمداً كثيراً

﴿ مَّا يفعلُ الله بعذابِكم إن شكرتُم وءَامنتُم ﴾[٢٢] .

فاللهم لك الحمد بالإيمان ، ولك الحمد بالإسلام ، ولك الحمد بالقرآن ، ولك الحمد بالأهل ، والمال والمعافاة . ولك الحمد ربنا بما خلقتنا ، ورزقتنا ، وهديتنا ، وعلمتنا ، وأنقذتنا ، وفرجت عنا ، ولك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت ، يامن أظهر الجميل ، وستر القبيح ، يامن لا يؤاخذ بالجريرة ولا يهتك الستر ، ياحسن التجاوز ، ياواسع المغفرة ، ياباسط اليدين بالرحمة ، ياصاحب كل نجوى ، يامنتهى كل شكوى ، ياكريم الصفح ، ياعظيم المن ، يامبتدئاً بالنعم قبل استحقاقها . لك الحمد ربنا كالذى نقول وخير مما نقول .

فهذه الفقرة من الحديث تشير إلى أن الخير كله فضل من الله على عبده من غير إستحقاق له ، والشر كله من عند ابن آدم من اتباع هوى نفسه كما قال عز وجل : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ .

وقال على رضى الله عنه : « لا يرجو عبد إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه ، فالله سبحانه إذا أراد توفيق عبد وهدايته ، أعانه ووفقه لطاعته ، وكان ذلك فضلاً منه ، ورحمة ، وإذا أراد خذلان عبد ، وكله إلى نفسه ، وخلى بينه وبينها ، فأغواه الشيطان لغفلته عن ذكر الله واتبع هواه ، وكان أمره فرطاً ، وكان ذلك عدلاً منه ، فإن الحجة قائمة على العبد بإنزال الكتاب وإرسال الرسول فما بقى لأحد من الناس على الله حجة بعد الرسل » ، قال ابن رجب : فقوله بعد هذا ﴿ فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ﴾ .

---

(٢٢) سورة النساء الآية ١٤٧ .

إن كان المراد من وحد ذلك فى الدنيا فإنه يكون حينئذ مأموراً بالحمد لله على ما وجده من جزاء الأعمال الصالحة ، الذى عجل له فى الدنيا ، كما قال : ﴿ من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ ويكون مأموراً بلوم نفسه على ما فعلت من الذنوب التى وجد عاقبتها فى الدنيا .

كما قال تعالى :

﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ .

فالمؤمن إذا أصابه فى الدنيا بلاء رجع إلى نفسه باللوم ، ودعاه ذلك إلى الرجوع إلى الله بالتوبة والإستغفار ، وفى المسند وسنن أبى داود عن النبى ﷺ قال : « إن المؤمن إذا أصابه سقم ، ثم عافاه الله منه ، كان كفارة لما مضى من ذنوبه ، وموعظة له فيما يستقبل من عمره ، وإن المنافق إذا مرض وعوفى كان كالبعير ، عقله أهله وأطلقوه لا يدرى بما عقلوه ولا بما أطلقوه » .

وقال سلمان الفارسى : « إن المسلم ليبتلى فيكون كفارة لما مضى ، ومستعتباً فيما بقى ، وإن الكافر يبتلى ، فمثله كمثل البعير ، أطلق فلم يدرِ لما أطلق وعقل » .

وإن كان المراد من وجد خيراً أو غيره فى الآخرة ، كان إخباراً منه بأن الذين يجدون الخير فى الآخرة يحمدون الله على ذلك ، وأن من وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه ، حين لا ينفعه اللوم ، فيكون الكلام لفظه لفظ الأمر . ومعناه الخبر كقوله ﷺ : « من كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

والمعنى أن الكاذب عليه يتبوأ مقعده من النار ، وقد أخبر الله تعالى عن أهل الجنة أنهم يحمدون الله على ما رزقهم من فضله فقال تعالى :

﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍ ۚ تجرى من تحتهم الأنهٰر ۖ وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهٰذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾ (٢٣) .

---

(٢٣) سورة الأعراف الآية ٤٣ .

وقال تعالى :

﴿ وقَالوا الحَمدُ لله الذى صَدَقَنا وعدَه وأَورَثَنا الأَرضَ نَتَبوأ منَ الجَنَّة حيثُ نشاءُ ﴾[٢٤] .

وقال تعالى :

﴿ وقَالُوا الحَمدُ لله الذىّ أذهَبَ عنا الحَزنَ * إنَّ ربَّنا لغفورٌ شكورٌ * الذى أحلَّنَا دار المقَامَة من فضلِه * لا يَمسُّنا فيها نصبٌ ولا يمسُّنَا فيها لُغُوبٌ ﴾[٢٥] .

وأخبر عن أهل النار أنهم يلومون أنفسهم ويمقتونها أشد المقت فقال تعالى :

﴿ وقَالَ الشيطَٰن لَمَّا قُضِىَ الأمرُ إنَّ الله وعَدَكم وعَدَ الحق ووَعدَتكم فأَخلفتكُم * وما كَانَ لى عليكم من سُلطَٰنٍ إلا أن دعوتكُمُ * فاستجبتم لى فلا تلومونى ﴾[٢٦] .

وقال تعالى :

﴿ إنَّ الذينَ كفَرُوا ينادون * لَمقتُ الله أكبرُ من مقتكم أنفُسكم * إذ تُدعَون إلى الإيَمَٰن فتكفُرُون ﴾[٢٧] .

وقد كان السلف الصالح يجتهدون فى الأعمال الصالحة حذراً من لوم النفس عند إنقطاع الأعمال على التقصير ، وفى الترمذى : عن أبى هريرة مرفوعاً : « **ما من ميت يموت إلا ندم ، إن كان محسناً ، ندم على أن لا يكون إزداد ، وإن كان سيئاً ، ندم أن لا يكون استعتب** » . وقيل لمسروق : لو قصرت عن بعض ما تصنع من الإجتهاد فقال : « والله لو أتانى آت فأخبرنى أن لا يعذبنى لاجتهدت فى العبادة ، قيل كيف ذاك ؟ قال : حتى تعذرنى نفسى إن دخلت النار ، أن لا ألومها أما بلغك فى قول الله تعالى : ﴿ **ولا أقسم بالنفس اللوامة** ﴾ ، إنما لاموا

---

(٢٤) سورة الزمر الآية ٧٤ .

(٢٥) سورة فاطر الآية ٣٤ .

(٢٦) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .

(٢٧) سورة غافر الآية ١٠ .

أنفسهم حين صاروا إلى جهنم ، فأعتنقتهم الزبانية ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، وانقطعت عنهم الأمانى ، ورفعت عنهم الرحمة ، وأقبل كل امرىء منهم يلوم نفسه ، وكان عامر بن عبد قيس يقول : والله لأجتهدن ، فإن نجوت فبرحمة الله وإلا لم ألم نفسى ، وكان زياد بن عياش يقول لابن المنكدر ولصفوان بن سليم : الجد الجد والحذر الحذر ، فإن يكن الأمر على ما نرجو كان ما علمتما فضلاً ، وإلا لم تلوما أنفسكما ، وكان مطرف بن عبد الله يقول : « إجتهدوا فى العمل ، فإن يكن الأمر كما نرجوا من رحمة الله وعفوه ، كانت لنا درجات ، وإن يكن الأمر شديداً كما نخاف ، ونحذر لم نقل : « **ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل** » ، نقول : « قد عملنا فلم ينفعنا ذلك » أ . هـ .

وبعـــد ... عبـاد الله

فهيا بنا نعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله ، ونتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما كتب له ، فما رأيت مثل الجنة نام طالبها ، ولا مثل النار نام هاربها ، ولو كانت الجنة من خزف يبقى ، والدنيا من ذهب يفنى ، لكان على العاقل أن يؤثر الخزف الباق على الذهب الفانى ، فكيف والجنة من ذهب يبقى ، والدنيا من خزف يفنى « **ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار** » .

وإذا أردت أن تعرف ماذا لك غداً عند ربك ، فاعرض نفسك على كتاب الله ، وستجده عند قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم** ﴾ .

وإذا أردت أن تعرف مقامك ، فانظر أين اقامك واعلم أنك لست تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ، ولا من ملكه إلى ملك غيره ، فاستحيى من ربك أن يراك على معصيته، وهو يسبغ عليك نعمه ، وأنت فى قبضته ، وتحت قهره ، والفرصة لازالت أمامك فاعمل قبل أن تسأل الرجعة فلا تجلب ،وأكثر من ذكر الموت ، وتفكر فى حالتك إذا وقفت بين يديه سبحانه ، فذكرك بإنعامه ومساويك ، وأياديه ومخازيك وما هى إلا لحظات وكأن قدفقد .

﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُم وهُم فى غَفلةٍ مُعرِضُونَ** ﴾[1] .

فاكثر من ذكر الموت واحذر أن تكون من هؤلاء الذين قال الله فيهم :

﴿ **وَمَا ظَلَمْنٰهُم وَلٰكِن كَانُوا هُمُ الظّٰلمِين • وَنَادَوا يٰمٰلك لِيَقضِ عَلَينَا رَبُّكَ • قَالَ إنكُم مٰكثُونَ لَقَد جِئنٰكُم بالحَق ولٰكنَّ اكثَرَكُم للحقِ كٰرِهُونَ • أم أبْرَمُوا**

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١ .

أمراً * فإنّا مُبرِمُونَ * أم يحسبون أنّا لا نسمَع سرهُم ونجواهم * بَلَى ورُسُلنَا لَديهم يَكتُبونَ ﴾[٢] .

وهذا الحديث الذى بين يديك حرى أن ينقش على القلوب ، فتدبر معانيه وقف عند حـدوده ، فستجثو على الركب عند سماعه ، كما فعل أبو إدريس الخولانى ، ثم ستنهض لتقول : « **وعجلت إليك رب لترضى** » .

---

(٢) سورة الزخرف الآية ٧٧ ــ ٧٨ .

الخاتمـــة

وإنـا لله وإنـا إليـه راجعـون

فالأيام تمر ، والصحائف تطوى ، والأعمال ترفع لرب العالمين ، والناس في غفلاتهم ، ورحى المنية تطحن ، وكل ما هو آت فهو قريب ، والبعيد ما ليس بآت ، فهذا الصغير قد شب ، وهذا الشاب قد انحنى ، وهذا الشيخ قد واراه التراب ، وكل نفس ذائقة الموت ، ولذلك كان لابد من تجويد وتحسين الخاتمة ، والإستعانة بالله على ذلك ، حتى يجعل خير أعمالنا ، خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقاه .

ونهاية هذه الرسالة وخاتمتها إنما تذكر العبد بنهايته ، وخاتمته ، فكلاهما لا يدرى العبد متى ستكون ولا كيف ستكون ، وحسبه أن يسأل ربه حسن الخاتمة ، حتى يحوز القبول والسلامة والنجاة فى الدنيا والآخرة ، وليس له أن يدخر وسعاً فى طاعة ربه ، وإحسان العمل ، وذلك لأن الأعمال بالخواتيم فعن جابر رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « **يبعث كل عبد على ما مات عليه** » (رواه مسلم)

وعن أنس رضى الله عنه قال : « **إن الله عز وجل تابع الوحى على رسول الله ﷺ قبل وفاته حتى توفى ، أكثر ما كان من الوحى** » (متفق عليه) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « **كان عمر رضى الله عنه يدخلنى مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد (أى غضب) فى نفسه فقال : لمَ يدخل هذا معنا ، ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من حيث علمتم فدعانى ذات يوم فأدخلنى معهم ، فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم ، قال : ما تقولون فى قول الله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾[1] . فقال بعضهم أمرنا نحمد**

---

(١) سورة النصر الآية ١ .

الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لى : أكذلك تقول ياابن عباس ؟ فقلت : لا . قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال : ﴿ إذا جاء نصرُ الله والفتح ﴾ وذلك علامة أجلك . ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ ، فقال عمر رضى الله عنه : ما أعلم منها إلا ما تقول » (رواه البخارى) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « **ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ، إلا يقول فيها : سبحانك ربنا ، وبحمدك اللهم اغفر لى** » متفق عليه .

وفى تفسير قوله تعالى :

﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾ .

قال ابن عباس وغيره : « أو لم نعمركم ستين سنة ؟ » ، وقيل معناه ثمانى عشرة سنة ، وقيل أربعين سنة ، ونقلوا أن أهل المدينة كانوا إذا بلغ أحدهم أربعين سنة تفرغ للعبادة . وقيل هو البلوغ ، وقوله تعالى : **﴿ وجاءكم النذير ﴾**(٢) ، قال ابن عباس والجمهور : هو النبى ﷺ ، وقيل : الشيب .

وفى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **أعذر الله إلى امرىء أخر أجله حتى بلغ الستين سنة** » (رواه البخارى) .

قال العلماء معناه : لم يترك له عذراً ، إذا أمهله هذه المدة . يقال : أعذر الرجل إذا بلغ الغاية فى العذر . ولما سأل الفضيل بن عياض رجلاً فقال له كم أتت عليك ؟ قال : ستون سنة . قال : فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ فقال الرجل : **﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾** ، فقال الفضيل : أتعرف تفسيره تقول **﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾** ، فمن عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع ، فليعلم أنه موقوف ، ومن علم أنه موقوف ، فليعلم أنه مسئول ، ومن

(٢) سورة فاطر الآية ٣٧ .

علم أنه مسئول فليعد للسؤال جواباً ، فقال الرجل : فما الحيلة ؟ قال يسيره ، قال : ما هي ؟ قال تحسن فيما بقي ، يغفر لك ما مضى ، فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت بما مضى ، وما بقي . وإذا كان الأمر كذلك فلابد من قصر الأمل .

فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : « **كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** » (رواه البخارى) ، وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : « **إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا امسيت فلا تنتظر الصباح ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك** » .

فما أمل من نفسه بيد غيره ، وهو كل يوم يرتحل مرحلة إلى الآخرة ، ولذلك قالوا : كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره ، وشهره يهدم سنته ، وسنته تهدم عمره ، وكان الإمام أحمد رحمه الله يقول : « يادار تخربين ويموت سكانك » . وعن أنس رضى الله عنه قال : « **خط رسول الله ﷺ خطاً وقال : هذا الإنسان ، وخط إلى جنبه خطاً وقال : هذا أجله ، وخط خطاً آخر بعيداً منه فقال : وهذا الأمل فبينما هو كذلك إذ جاءه الأقرب** » (رواه البخارى) . فالكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى . فالمبادرة المبادرة ، إنما هى الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم ، فإنكم أصبحتم فى أجل منقوص ، والعمل محفوظ ، والموت فى رقابكم ، والنار بين أيديكم ، فتوقعوا قضاء الله فى كل يوم وليلة ، فقد فضح الموت الدنيا ، فلم يترك لذى لب فرحاً .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « **بادروا بالأعمال سبعاً هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر** » (رواه الترمذى) وقال حديث حسن .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « **بادروا بالأعمال الصالحة ، فستكون فتن ، كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ، ويمسى كافراً ، ويمسى مؤمناً ، ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا** » (رواه مسلم) .

وعن عقبة بن الحارث رضى الله عنه قال : « **صليت وراء النبى ﷺ بالمدينة العصر فسلم ثم قام مسرعاً ، فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه ، ففزع الناس من سرعته ، فخرج عليهم ، فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته ، قال : ذكرت شيئاً من تبر عندنا (أى قطعة ذهب أو فضة) فكرهت أن يحبسنى فأمرت بقسمته** » (رواه البخارى) .

وفى رواية له : « **كنت خلفت فى البيت تبراً من الصدقة ، فكرهت أن أبيته** » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « **جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله !! أى الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر ، وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا أو لفلان كذا ، وقد كان لفلان** » متفق عليه .

كتب الأوزاعى إلى أخ له :

أما بعد : فقد أحيط بك من كل جانب واعلم أنه يسار بك فى كل يوم وليلة ، فاحذر الله ، والمقام بين يديه ، وأن يكون أخر عهدك به والسلام .

وكان الحسن يقول : « **لم يزل الليل والنهار سريعين فى انقضاء الأعمار ، وتقريب الآجال هيهات قد صحبا نوحاً وعاداً وثمود وقروناً بين ذلك كثيراً ، فأصبحوا قد أقدموا على ربهم ووردوا على أعمالهم ، ولما دخلوا على بعض الصالحين فقلبوا بصرهم فى بيته ، فقالوا له : إنا نرى بيتك بيت رجل مرتحل ، فقال : لا أرتحل ، ولكن أطرد طرداً** » . « فاستبقوا الخيرات » .

﴿ وسارعوا إلىٰ مغفِرةٍ من رَبكُم وجَنةٍ عَرضُهَا السمٰوات والأرضُ أعِدت للمُتقين ﴾ .

وسددوا وقاربوا ، واعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته ، فنسأل الله من الخير كله ، عاجله ، وآجله ، ما علمنا منه وما لم نعلم ، وأن يحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

فهـــرس الكتـــاب

الموضـــــوع	صفحة

رقم الإيداع ٩٧٩٤ / ١٩٩٠